371

HARLEQUIN

روايات أحلام

رمال الحب المتحركة

ديانا هاملتون

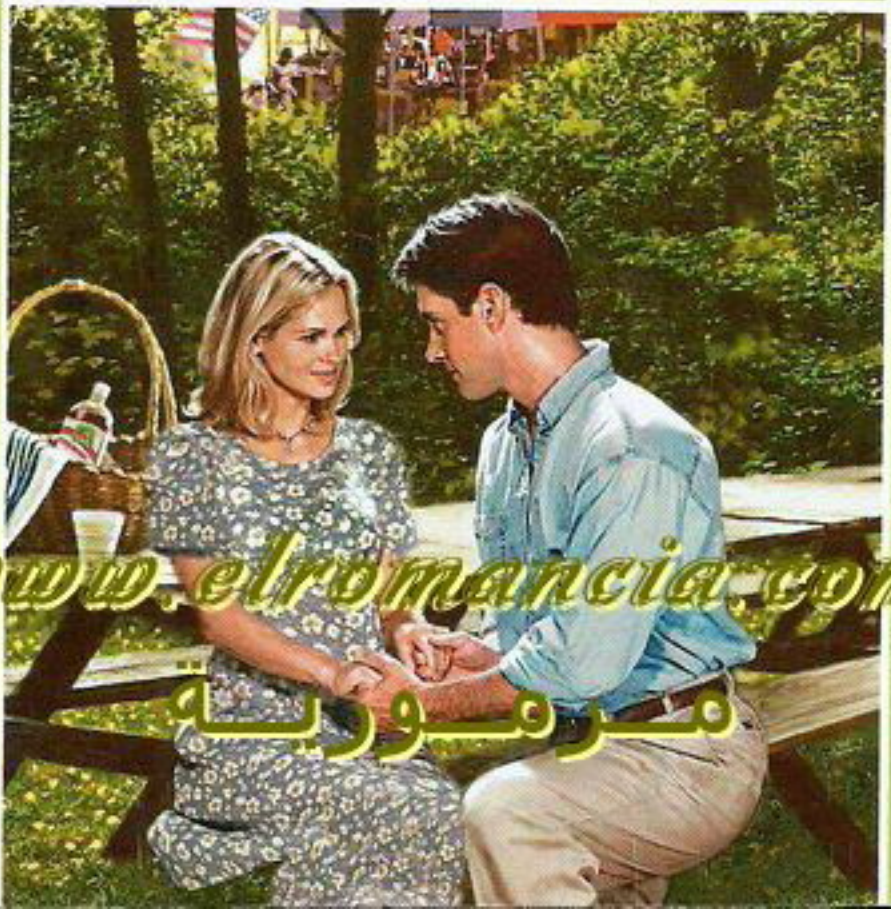

www.elromancia.com
مرموريـــة

رمال الحب المتحركة

ـ سيبقى زواجنا مجرد حبر على ورق . لا أكثر...
تزوج خافيير من زوي بهدف حماية الوريثة الشابة من صائدي الثروات الذين يحومون حولها طامحين للحصول على مالها وجمالها معاً . أما هو . فصاحب ثروة ولا يحتاج إلى المزيد من المال . ولكن هل سيصمد طويلاً أمام سحر زوجته ؟
مقاومته لها تغدو أكثر صعوبة مع استمرار زواجهما الصوري الذي كاد يفقده صوابه . فهل سيتمكن من الحفاظ على وعده؟

لبنان	2500ل.ل	البحرين	1دينار
سوريا	75ل.س.	السعودية	10ريال
الأردن	1.5دينار	مصر	8جنيه
الكويت	750فلس	المغرب	15درهم
الإمارات	10دراهم	تونس	2دينار
قطر	10ريال	عمان	1ريال

ISBN 9953-15-325-6

ديانا هاملتون

امرأة رومنسية بكل ما لهذه الكلمة من معنى.

وقعت في حب زوجها من النظرة الأولى، وهما يعيشان حتى اليوم معاً في «تادر هاوس»، وهو منزل أشبه بقصور الحكايات، ربيّا فيه أولادهما الثلاثة. تشاركهما المنزل ثماني قطط أنقذاها من الشارع وجرو كلب.

ورغم الحياة الصاخبة داخل المنزل اعتادت ديانا منذ أن تعلمت القراءة والكتابة، أن يكون بين يديها كتاب، إما تقرأه أو تكتبه. وهذا ما تنوي أن تفعله لسنوات طويلة بعد.

تمهيد

- هل أنت مضطر للرحيل غداً يا خافيير؟ لم نعد نراك إلا لماماً... ألا تعلم أنني سأقصد وأبيك الساحل في غضون أسبوع؟ لا أظن أنني أغالي حين أطلب منك أن تمنحنا أسبوعاً واحداً بعد من وقتك الثمين!

- آسف يا أمي!

ظهرت إمارات الأسف الصادق في عيني خافيير ماسترز الرماديتين، وهو يواجه نوبة الغضب التي استولت على والدته.

على الرغم من بلوغ إيزابيلا ماريا عقدها الخامس، لم تظهر بصمات الزمن على شعرها الداكن، وجمالها الإسباني المهيب. لقد سلبت عقل والده لثلاثين سنة خلت، فوقع في حبائلها، بعد أن كان قد تجاوز الأربعين من عمره، وفقد الأمل في العثور على امرأة تشاركه حياته...

استقامت إيزابيلا ماريا في كرسيها المقصب وقالت له: «لطالما سمعتك تردد أنك تعشق العيش في هذا المكان!».

تحركت قطعة مشتعلة من الحطب في الموقد الحجري، فتطاير الشرر في أرجاء الغرفة. نهض خافيير من مقعده الوثير ليسوي النيران، التي لم يجد بداً من إشعالها، بعد أن أخذت الرياح الباردة تعصف من أعالي قمم سييرا نيفادا منذرة باقتراب الشتاء...

سمع والده يقول لزوجته: «لا تنكدي عيش الصبي».

فظهرت ابتسامة ساخرة على طرف فمه، وهو يقر في سره بصحة كلامها. فمنذ اللحظة الأولى التي وقعت فيها عينا الفتى خافيير البالغ من

العمر سبع سنوات على المنزل الذي اشتراه والده لتمضية أيام العطلة، تعلّق خافيير بهذا المنزل، وما يزال كذلك.

إنه خان مغربي قديم، يقع في قلب البلدة الأندلسية الصغيرة، خلف بوابة ضخمة مزدانة بالمسامير. تنتشر مبانيه، ذات الأروقة المقنطرة، حول فناء يعبق في فصل الصيف بروائح الورد، والآس والزنبق المسكرة..

بعد تدهور صحة والده وتقاعده عن العمل، نقل والداه ملكية منزل العائلة في غلوسيسترشاير إليه، وقررا الانتقال للعيش في هذا المكان. إلا انهما غالباً ما يقصدان الساحل، هرباً من البرد القارس، خلال فصل الشتاء، ولا يعودان إلى هنا، إلا مع حلول عيد الفصح.

- أتمنى من كل قلبي أن أمضي برفقتكما وقتاً طويلاً.

وقف خافيير بقامته الطويلة أمام الموقد، وساقاه متباعدتان. هز كتفيه العريضتين، تحت كنزته الكشمير الناعمة السوداء، التي التصقت بجسمه فأبرزت رشاقته.

- لكنني أواجه مشكلة عسيرة.

سأله ليونيل ماسترز بحدة: «هل هي مشكلة متعلقة بالعمل؟».

تقاعد ليونيل ماسترز منذ ثلاث سنوات، مسلماً زمام الأمور لابنه الوحيد.. إلا أنه لم يفقد يوماً اهتمامه بشركة البناء التي أسسها مع شريكه القديم مارتن روثويل. تلك الشركة التي حققت نجاحاً باهراً، لتصبح اليوم شركة رائدة، بفضل براعة خافيير في العمل.

- إطلاقاً!

أسرع خافيير يزيل مخاوف والده، ثم تابع: «من السهل علي معالجة المشاكل الناجمة عن العمل، غير أن هذه المشكلة تحمل اسم زوي روثويل!».

سمع والديه يطلقان، في آن معاً، تنهيدتين معبرتين. تلاهما صمت

مطبق، لا يعكر صفوه إلا دقات قلب خافيير المتسارعة...

نظر إلى ساعته الذهبية التي تحيط بمعصمه. ربع ساعة فقط تفصلهم عن موعد العشاء، وعليه أن يضع النقاط على الحروف، وينتهي من الأمر.

- خلال مغادرتي أحد الاجتماعات في مدريد، تلقيت اتصالاً من أليس روثويل على هاتفي الخليوي... بدت على شفير الانهيار، وأبلغتني باختصار أنها ستتنازل لي عن وصايتها على زوي، لأنها لم تعد قادرة على التعامل معها.

- ماذا؟

عقدت إيزابيلا ماريا حاجبيها، ووضعت يدها على صدرها فوق قميصها الحريري، بحركة درامية، واستطردت تقول: «كيف خيل إليها أنك قادر على القيام بذلك؟ لطالما وجدتها امرأة غريبة، باردة، ومتزمتة، وسأضيف الآن صفة الجنون إلى القائمة. كيف خطر لها أنك تستطيع الاعتناء بحفيدتها؟ لو كنت متزوجاً لاختلف الأمر!».

لم يخف على خافيير استنكارها المبطن، وضحكة والده الخافتة، فهز كتفيه استهجاناً.

مع بلوغه الخامسة والعشرين من العمر، وإصراره على البقاء عازباً، مع أنه ابن وحيد، بدأ القلق يساور والدته، التي تتمنى أن ينعم الله عليها بأحفاد كثر. ألا يفترض به أن يفكر في جيل المستقبل؟

لم يكن خافيير مستعداً للارتباط، لا سيما وانه يستمتع بحريته إلى أقصى حد. فهو يعمل بجهد، ويحق له أن يلهو برفقة النساء الجميلات، المتأنقات اللواتي يشاطرنه وجهة نظره. وحده الرجل المغفل يحسب الرغبة الجامحة حباً.

علق خافيير بنبرة حادة، متجاهلاً تلميحات والدته اللاذعة حول عزوبيته:

- لم تعد زوي طفلة! بلغت السادسة عشر من عمرها. تقول جدتها إنها مراهقة مشاكسة، إذ يبدو أنها ترفض العودة إلى المدرسة الداخلية، وتتسلل خلسة من المنزل، وتحب الاستماع إلى الموسيقى الصاخبة ليل نهار. وذلك أثار حفيظة أليس، فقررت أن تتنازل لي عن حق الوصاية عليها».

سأل ليونيل ماسترز ابنه: «لِمَ وقع اختيارها عليك؟».

وأضاف باعتزاز: «إنك أسطورة في عالم الأعمال. فأنت حازم، ولكنك عادل، تضرب بيد حديدية مرتدياً قفازاً مخملياً. ولا أعتقد أن مسؤولية فتاة مراهقة مشاكسة قد تثقل كاهلك، لكنني لا أجد صلة دم أو واجب عائلي تعول عليه أليس روثويل».

زم خافيير فمه.

- ألا تظن أن ثمة واجب أدبي معنوي يلزمنا برعايتها؟ لقد باع والد زوي حصته لك، وقضى مع زوجته في الحريق الذي شب في هذا المكان، بعد مرور ستة أسابيع.

وتوقف قليلاً عن الكلام، ثم تابع يقول بصراحة مطلقة: «لحسن الحظ أن زوي كانت تقضي الليلة في منزل إحدى صديقاتها، إلا انها فقدت يومها والديها ومنزلها، والاحساس بالأمان الذي تحتاج إليه فتاة في الثامنة من عمرها. شعرت بالأسف الشديد حيال زوي و أليس في آن معاً، وخطر لي أنه ينبغي على أحد أفراد العائلة أن يقف إلى جانبهما».

ولوح بيديه بازدراء مضيفاً: «لا شك أن أليس روثويل امرأة صعبة المراس ولا يمكن التعامل معها بسهولة، إلا أنها فقدت زوجها وابنها في غضون سنة واحدة، ووجدت نفسها مع حفيدة تحتاج إلى اهتمامها وحنانها، بشكل دائم. كنت أعي ذلك تماماً، لذا بقيت على اتصال بها طوال السنوات الماضية. وأظن أن أليس وجدت فيّ الشخص الأنسب للاعتناء بحفيدتها».

بدا جلياً أن إيزابيلا ماريا تجاهلت تلميح خافيير الصريح إلى تقصيرهما في تقديم المساعدة لابنة شريك والده القديم، فأطلقت العنان لأفكارها تاركة لنفسها حرية الانجراف في مسار آخر، فقالت: «كانت زوي روثويل طفلة جميلة، تملؤها السعادة. أذكر جيداً يوم أتت برفقة والديها لقضاء عطلة عيد الميلاد معنا، في منزلنا في واكهام لودج. كنت يومها منهمكاً، يا ليونيل، بوضع اللمسات الأخيرة على عملية شراء حصة والدها. ولم تكد تمضي أسابيع قليلة حتى قضى والداها تاركين لها مبالغ طائلة، فتحولت الطفلة زوي إلى صاحبة ثروة فاحشة، أليس كذلك يا خافيير؟».

عيل صبر خافيير، فقال: «سترث زوي ثروة فاحشة عند بلوغها الحادي والعشرين من عمرها. خلال هذا الوقت، ستبقى الأموال كلها في عهدة الوصي عليها».

لم يتوانَ خافيير عن الرد عن سؤالها، على الرغم من عدم ارتباطه بالمشكلة التي يواجهها حالياً. غير أنها لم تلبث أن فاجأته بسؤال لم يكن في الحسبان:

- أما زالت جميلة؟ كان شعرها أشقر طويلاً وعيناها واسعتين ذهبيتين.

عقد خافيير حاجبيه استهجاناً. ما علاقة جمال زوي بالورطة التي وجد نفسه فيها؟ جلُّ ما يهمه هو أن يجد سبيلاً لإقناع تلك المراهقة المشاكسة بمتابعة تعليمها.

- من أين لي أن أعرف؟

لم تخلُ نبرة صوته من شيء من التذمر.

- حرصت على زيارتهما مرتين في السنة، للتأكد من حسن سير الأمور. وغالباً ما كنت أمتع نظري بنوبات الغضب الجامح، ورؤية المربيات يتوارين بلمح البصر...

خلال زياراته المعدودة لهما، كانت زوي تلاحقه كظله، آملة أن

يرأف بحالها، ولا يضن عليها ببضع ساعات من المرح الطفولي. مرح حظرته عليها جدتها المتعجرفة، ومدبرة المنزل السابقة، والتي لم تكف عن ترداد المبدأ القائل أنه ينبغي رؤية الأولاد من دون سماع أصواتهم.

بعد التحاقها بالمدرسة الداخلية، تحولت زوي إلى فتاة يملؤها الحنق، تعقص شعرها إلى الخلف ليتدلى حتى أسفل ظهرها، وإمارات الغضب الشديد تبدو على وجهها باستمرار.

لم ير خافيير زوي منذ أكثر من سنة، وقد حال ضغط العمل دون عودته إلى انكلترا.

قطب جبينه غيظاً وهو يتذكر نظراتها المتفحصة، خلال زيارته الأخيرة، التي دامت قرابة الساعتين. نظرات أثارت انزعاجه بشكل غريب.

- عليك أن تتزوج بها. إنها تملك ثروة طائلة ولن تبذر أموالك يميناً وشمالاً. عليك أن تأخذ هذه المسألة بعين الاعتبار، لأن المرأة تفكر في حجم محفظة الرجل قبل أن تفكر في مدى سعادته.

أعلنت إيزابيلا ماريا ذلك ببرودة مطلقة: «يمكنك أن تتزوج بها بعد سنتين، أي مع بلوغها الثامنة عشرة من عمرها، شرط أن تكون قادرة على الإنجاب. فوحده ابني الوسيم، القوي العزم، يستطيع أن يخلصها من نزعتها إلى إساءة التصرف».

أطلق خافيير ضحكة مدوية ساخرة، كأنه ينفس عن سخطه، وقال: «يمكنك أن تحلمي قدر ما تشائين، يا أمي!».

لم يعد خافيير قادراً على تحمل مبالغة والديه في إزعاجه على الدوام. أما بالنسبة إلى قدرة زوي على الإنجاب، فقلما كان يكترث للأمر.

* * *

تسارعت دقات قلب زوي وهي تتأمل عقارب الساعة تتحرك ببطء

شديد.

كان خافيير آتياً لاصطحابها، فتشوشت أفكارها لشدة فرحها، حتى كادت تفقد السيطرة على نفسها.

استرخت بتململ على الكرسي بالقرب من النافذة المطلة على الحديقة الكئيبة، وعيناها لا تفارقان السياج الجانبي، لتتمكن من رؤية سيارته وهي تنحرف عن طريق البلدة الرئيسي، لتسلك طريق المنزل الفرعية.

أحست بوخز في عينيها وهي تحاول جاهدة ألا تطرف بهما كي لا يفوتها مشهد وصوله.

لأول مرة في عمرها الذي لم يتجاوز السادسة عشرة، بدأت زوي تشعر بوجود ملاك حارس يهتم لأمرها ويرشدها إلى الطريق الصحيح. فما السبب إذن وراء قرارها المفاجئ بمغادرة المدرسة، وتصميمها على عدم الرجوع أبداً؟

منذ اللحظة الأولى التي وطأت فيها قدماها أرض تلك المدرسة، أحست بنفور شديد منها. إذ وجدت نفسها محاطة بأشخاص غرباء لا يعرفونها، ولم يحاولوا التقرب منها. كان طلاب المدرسة الستون غريبي الأطوار، يميلون إلى الخنوع، والانكباب على العمل. ولم تلبث زوي أن اكتشفت السبب الحقيقي وراء ذلك. فالنظام الصارم هو سيد الموقف في مدرسة بلانشلي الخاصة للبنات، وكل من يخل به يعاقب أشد العقاب.

لم تولِ زوي التهديد بالعقاب أي اهتمام يذكر. فمهما بلغ حجم القصاص الذي قد يفرضه أساتذتها عليها، سيبقى في نظرها مجرد ظل واهٍ، مقارنة بالقصاص الذي فرضته الحياة عليها، يوم فقدت والديها ومنزلها وكل ما تملكه. وحده حصانها الصغير شيتليند تمكن من النجاة ليذكرها بماضيها السعيد، غير أن جدتها أليس رفضت رفضاً قاطعاً الاحتفاظ به وأمرت ببيعه.

هذا الأمر جعل زوي تكره الجدة أليس. والحق يقال، أنه يوم انتقلت

مرغمة للعيش معها، بعد أن فقدت أبويها ولم يعد لديها أحد سواها، أصيبت بالذعر من صدّ العجوز لها كلما أرادت الجلوس على ركبتيها، متوسلة إليها أن تأخذها بين أحضانها.

لم تعرف زوي، من قبل، معنى الرفض الجاف أو المعاملة الباردة، وكأنها فتاة مزعجة طائشة. غير أنها أبت أن تظهر مخاوفها لأحد، وحولتها إلى غضب جامح ورفض عنيد.

وحين استيقظت قبل أسبوع، عازمة على ألا تمضي دقيقة واحدة بعد في تلك المدرسة، لم تكن لديها أدنى فكرة عما ينتظرها، وذلك حتى مساء البارحة، حين أعلنت الجدّة أليس بشكل مفاجئ: «وافق خافيير ماسترز على تولّي مسؤولية الوصاية عليك، إلى حين بلوغك سن الرشد».

ثم زمت شفتيها الرقيقتين، وتابعت تقول: «أنا قمت بواجبي على أكمل وجه، ولكنني لم أعد قادرة على تحمل المزيد. آمل أن ينجح خافيير في إعادتك إلى صوابك، فلا تسيئي التصرف بعد اليوم. سيأتي لاصطحابك بعد ظهر الغد، فاحرصي على توضيب أغراضك قبل وصوله».

منذ تلك اللحظة، وزوي تعيش في حالة أشبه بالهذيان. خيل إليها أن ملاكها الحارس يعمل بجهد كبير، من دون أن يغفل عمّا تكنه لخافيير من مشاعر جارفة.

في بادئ الأمر، كان خافيير يستغل زياراته القليلة لهما لزرع البهجة في قلبها. فيصطحبها إلى حديقة الحيوانات، ويشتري لها المثلجات والهامبرغر، أو يأخذها لتمضية النهار قرب شاطئ البحر، حيث يبنيان معاً قصوراً من الرمال، أو يستمتعان لساعات طويلة معاً بمشاهدة التمثيليات الإسبانية المضحكة. في مطلق الأحوال، كانت زوي تشعر بسعادة عارمة، وهي تراه يكرس جزءاً من وقته لها، ويحيطها بالرعاية والاهتمام.

إلا أنها خسرت ذلك كله يوم أرسلتها جدتها إلى المدرسة الداخلية. صحيح أنه دأب على زيارتها خلال الإجازات، لكن جدتها كانت تمنعها من الخروج برفقته، وكأنها تعاقبها على نتائجها المدرسية السيئة. فتحولت الزيارات، التي طالما انتظرتها بشوق عظيم، إلى نوع من العذاب. إذ كان الثلاثة يجلسون معاً لارتشاف الشاي الذي تعده مدبرة المنزل، فيما تستغل الجدة الفرصة لتنهال عليها بالانتقادات القاسية؛ أجلسي بشكل مستقيم .. كفي عن الحراك .. أجيبي عن السؤال...

لم تشأ زوي أن تجيب عن الأسئلة التي كان خافيير يطرحها عليها، حول المدرسة والأصدقاء الجدد. فقد صمّمت، في قرارة نفسها، على ألا تظهر تعاستها أمام أحد لأنها لو فعلت لبدت ضعيفة في نظره، وهي ليست ضعيفة أبداً.

وعندما يحين وقت انصرافه، كان يعانقها بحرارة، تجعل الدموع تترقرق في مقلتيها. إنه الإنسان الوحيد الذي يحبها، والذي لن تراه من جديد إلا بعد مرور أشهر طويلة.

خلال زيارته الأخيرة، منذ قرابة السنة، حصل أمر غريب. فقد شعرت زوي بمشاعر الحب الجارفة تتسلل إلى قلبها.

لم يكن شعره الأسود الناعم، وعيناه السوداوان الضبابيتان، أو خداه البارزان وذقنه العنيد، ولا فمه المثير، وراء اشتعال فتيل الحب في أحشائها. ما جعل زوي تقع في حبه، في الواقع، طيبة قلبه الفطرية التي ترافقت مع هالة من الثقة بالنفس. وهي خير دليل على أنه من النوع الذي يقاتل حتى الرمق الأخير في سبيل الذين يهتم لأمرهم.

اجتاحتها موجة جديدة من المشاعر المسكرة. مشاعر أذابت أوصالها، وجعلت قلبها يتخبط بين ضلوعها. أحسّت أن كل خلية من خلايا جسمها تتحرق شوقاً إليه، فعجزت عن إبعاد عينيها عنه، وراحت تلاحق كل حركة من حركاته فيما ذهنها يسجّل كل كلمة يقولها.

وقوعها في الحب زودها بنوع من الحصانة ضد برودة الجدة أليس، فقبلت أن تعود إلى المدرسة بكل طيبة خاطر. عقدت العزم في سرها على أن تدرس بجهد، وتحافظ على انضباطها، علها تعود إلى المنزل حاملة نتائج جيدة، فلا تعترض جدتها على خروجها للتنزه مع خافيير.

أحست وكأنها تحلق فوق سحابة وردية وهي تعد الأيام التي تفصلها عن موعد زيارته التالية، آملة أن يأتي خلال عطلة عيد الفصح...

كانت تعي تماماً أنه من المحال أن يقع في حبها... غير أن ذلك لم يمنعها من الاستغراق في أحلام اليقظة أو انتظار زيارته التالية بشوق محموم...

وكمّ كانت خيبة أملها عظيمة حين تخلف عن زيارتها، ووجدت نفسها مرغمة على مواجهة الواقع الأليم. لا شك أنه مشغول بأمور أخرى أكثر أهمية، منعته من الحضور للسؤال عن حالها.

فهي لم تعد طفلة صغيرة تحتاج إلى رعايته، بل أصبحت فتاة راشدة وتستطيع الاهتمام بنفسها...

أحست بالمرارة وقد أدركت أنها ستفتقد كثيراً إلى ابتسامته العذبة، وعناقه الحار الصادق. وانتهى الأمر بها إلى إقناع نفسها بأنها لا تأبه للأمر. وطالما أن الأمر لا يعنيها، ولا أحد يكترث لأمرها، يمكنها أن تتصرف على هواها، وتفعل ما يحلو لها.

لكن الأخبار التي حملتها اليها الجدة أليس بدلت أشياء كثيرة، وحطمت درع اللامبالاة الشائك الذي بنته حول قلبها.

نهضت من كرسيها وقد بلغ التململ منها مبلغاً.

لم تقل جدتها لها الكثير، إلا أنها علمت منها أن خافيير وصل البارحة من إسبانيا، وأمضى الليلة في شقته في لندن. وسوف ينجز صباحاً بعض الأعمال العالقة، ثم يتوجه إلى يوركشاير.

ما الذي جعله يتأخر حتى هذه الساعة؟ إنها تتحرق شوقاً لرؤيته من

جديد.. أحست بوهن في ركبتيها وقد تذكرت في تلك اللحظة، أنها ستمضي ستين كاملتين في رعايته. تمسكت بالستائر المخملية السميكة كي لا تهوي أرضاً، فيما تصاعدت دقات قلبها وهي ترى جدتها تدخل إلى الغرفة.

تتميز جدتها ببنية نحيلة، كما أن الملابس الرسمية السوداء التي اعتادت على ارتدائها دوماً، تزيد من نحافتها.

قالت لها بحدة وقد بدت على خطوط وجهها علامات الاستياء: «إن كنت مصممة على ارتداء هذه الملابس المريعة، فمن الأفضل أن تتدثري بمعطف لائق وتغطي شعرك بوشاح. يكفي أن يرمقك خافيير ماسترز بنظرة واحدة ليتفض يديه منك!».

أثار انتقادها اللاذع استياء زوي فرمتها بنظرة غضبى، قبل أن تغادر الغرفة مسرعة وتصفق الباب خلفها بعنف.

عند مغادرتها المدرسة، أقسمت ألا ترتدي ثانية ذلك الزي المقيت، أو تلك التنانير والسترات الصوفية الكئيبة التي كانت الجدة تأمر بشرائها لها عبر البريد، من مجلة قديمة الطراز، مخصصة للعجائز اللواتي يلازمن منازلهنّ.

كان الأوصياء عليها، يدفعون لها، شهرياً، نفقة سخية، لم تتح لها الفرصة يوماً لانفاقها، ما أدى إلى تراكمها على مر السنوات.

بلغ تحديها لتلك السلطة المضنية أوجه، في الأسبوع الماضي، عندما استقلت الباص وتوجهت إلى البلدة، عاقدة العزم في سرها على أن تنفق المال على سجيتها.

اشترت مستحضرات تجميل، حظرت عليها في الماضي، وصبغة للشعر، فضلاً عن مجموعة من الملابس البخسة الثمن، الزاهية الألوان.

وبينما كانت تجرب الملابس في غرفة القياس، في أحد متاجر البلدة التي تبيع ملابس عصرية، خالجها، لأول مرة في حياتها، إحساس

بالسعادة. إحساس لم تعرف له مثيلاً من قبل.

جلست زوي على السلم الأمامي للمنزل تنتظر وصول خافيير، وهي تفكر أن جدتها تنتمي فعلاً إلى العصر الفكتوري.

تأخر خافيير أكثر مما كان يتوقع. فعلاوة على بعض الأعمال الطارئة، وجد صعوبة كبيرة في تحضير كل ما يلزم لتولي رعاية فتاة مراهقة.

يقع المنزل الذي يعود طرازه إلى عهد الملكة آن، بعيداً عن شارع البلدة الرئيسي. انعطف خافيير بسيارته الجاغوار ليسلك الطريق الفرعية المؤدية إليه، وإذا بطيف صارخ الألوان يظهر فجأة أمامه، ما أرغمه على الضغط على المكابح بعنف.

زوي! ماذا حل بتلك التنانير الصوفية الداكنة والكنزات التي لا شكل لها؟

بدا جلياً أنها استبدلتها بحذاء أسود ذي كعبين عاليين، وتنورة قصيرة قرمزية اللون، ذات حاشية غير متناسقة، وقميص غجرية الطراز، برتقالية اللون، مزدانة بالشرائط.

وما الذي فعلته بشعرها، بحق السماء؟

بدا شعر زوي أحمر براقاً، مقصوصاً بطريقة غريبة، كأن شخصاً تمثلاً قصّه عشوائياً بواسطة مقص العشب، وطلاه بمادة هلامية حتى بات أشبه بمسامير معوجّة.

فك خافيير حزام الأمان على مهل، ثم أطفأ محرك السيارة.

من المؤكد أن أليس أصيبت بنوبة هستيرية لدى رؤيتها ملابس زوي، ولا يمكنه لومها إطلاقاً. هل كان ذلك، إلى جانب انقطاع حفيدتها المتمردة عن الدراسة، الشعرة التي قصمت ظهر البعير؟

لاحظ خافيير أن زوي كانت تقفز في مكانها، وقد لفت ذراعيها

النحيلتين حول جذعها، وهي تحاول أن تتدفأ من البرد القارس.

أطلق تنهيدة عميقة، مدركاً صعوبة ما ينتظره، ثم ترجل من السيارة وهو يشد سترته الجلدية الناعمة حول جسمه...

لقد وعد الجدة أليس بأن يتولى رعاية زوي روثويل خلال السنتين المقبلتين، ولن ينكث بوعده مهما كلف الأمر.

بينما كان خافيير يجتاز الممر المرصوف بالآجر، ابتسمت له زوي ابتسامة عريضة، أبرزت قسمات وجهها المطلية بمساحيق التجميل بطريقة غير متقنة.

أقر في سرّه بأنها مجرد طفلة تحتاج إلى من يعتني بها، فرماها بابتسامة ملؤها المودة. غالباً ما يدفع الفضول المراهق إلى تجربة أشياء غريبة، علّه يكتشف حقيقة نفسه وعليه أن يحمد الله لأن زوي اختارت أن تكتشف نفسها من خلال الملابس الغريبة وقصة الشعر المريعة، ولم تحاول أن تسلك طريق الإدمان على الكحول أو المخدرات.

كان خافيير يعرف أليس تمام المعرفة، ويخالها انهالت على حفيدتها بشتى أنواع الانتقادات اللاذعة والملاحظات الساخرة، ما زعزع ثقة الفتاة في نفسها. لكنه لم يشأ أن يفتح الموضوع على الفور، وارتأى أن يرجئه إلى وقت لاحق. غير أن نواياه الحسنة ما لبثت أن تبخرت في الهواء، حين دنا منها ورأى وشم فراشة على خدها الأيسر. قطب جبينه ومد يده ليلمس رسم الحشرة المريعة بطرف أصابعه الطويلة، وقال: «ألن تكفي أبداً عن تشويه نفسك؟».

لم يغفل عن جمال وجهها الرائع، الذي أخفت معالمه تحت طبقة كثيفة من مساحيق التجميل ذات الألوان الصارخة، وعينيها الذهبيتين الواسعتين المتلألئتين ببريق التسلية.

أحس فجأة بضيق في صدره، فتراجع خطوة إلى الخلف.

- إنه نوع من التغيير أيها المغفل. ألم تدرك ذلك؟

قالت له ذلك بوقاحة مطلقة بعد أن بذلت جهداً لاستعادة أنفاسها. إذ شعرت أن النيران تأججت في البقعة التي لمسها بأصابعه، في حين راحت ألسنتها تتسلل إلى أنحاء جسمها بأكمله. صحيح أنها أحست بقشعريرة تسري على امتداد عمودها الفقري، إلا أن وهج نيران الشوق المستعرة في أحشائها كاد يخنقها.

كم سيطيب لها العيش إلى جانب هذا الرجل الوسيم!

لم يصدر منه أي تعليق لاذع حول ملابسها، ولم تظهر عليه إمارات الذهول حين وقعت عيناه على تسريحة شعرها الغريبة. من المؤكد أنه سيدعها تتصرف على سجيتها، بعيداً عن الانضباط الصارم الذي فرضته عليها جدتها وأساتذتها على حد سواء.

لطالما علمت أن خافيير إنسان طيب. ففي طفولتها، دأب على زيارتها بشكل مستمر، وها هو اليوم يهب لنجدتها.

أقرت زوي في سرها بأنها لم تشعر يوماً بهذا الحب تجاه أي شخص آخر سواه!

لم تكد تمضي نصف ساعة على مغادرتهما المنزل حتى شعر خافيير بالانزعاج. لا شك أن وداع زوي البارد لجدتها مزق فؤاده، لا سيما أن المرأة العجوز لم تبذل جهداً لإخفاء فرحها بالتخلص من الفتاة المسكينة، غير أن عطر زوي القوي كان السبب وراء انزعاجه.

فكّر بأن يفتح نوافذ السيارة، ليتخلص من الرائحة القوية التي عبقت في داخلها، إلا أنه خشي أن تتجمد أطرافها من شدة البرد. فبعد أن أبت أن تأخذ المعطف المدرسي الذي ناولتها إياه مديرة المنزل، اندفعت نحو السيارة، تترنح في حذائها ذي الكعبين المرتفعين، فيما راحت تنورتها القصيرة تتمايل يميناً وشمالاً.

حاول خافيير أن يصم أذنيه عن ثرثراتها، إلا أن محاولاته ذهبت هباءً، إذ لم تكف طوال الطريق عن الإغداق عليه بعبارات الامتنان، ما

جعله يدرك أنها تخال الحياة معه جنة النعيم، أشاح نظره بعيداً عنها وقد علت وجهه إمارات الغضب والقلق في آن معاً.

من السهل عليه أن يفهم سبب ثورتها على زي المدرسة، والملابس القديمة الطراز التي كانت جدتها ترغمها على ارتدائها، غير أن ردة فعلها العكسية تخطت كل الحدود. لعلها تخال نفسها تبدو جميلة ومثيرة بثيابها هذه، إلا أن شكلها يوحي للآخرين بأنها إحدى فتيات الشارع. وفكّر أن الوقت قد حان ليملي عليها القواعد الأساسية التي ينبغي عليها الالتزام بها.

- من الأفضل أن نضع النقاط على الحروف قبل أن توهمك مخيلتك بأن الحياة معي أشبه بحلم وردي. اتصلت بالأوصياء عليك لأبلغهم بالتغير الذي طرأ على الوصاية، وعلمت أنك ألححت عليهم ليرسلوا لك مبلغاً كبيراً من المال. لن يتكرر ذلك يا زوي، وعلينا أن نضع حداً لما حصل. إن احتجت لشيءٍ ما، عليكِ أن تعلميني بالأمر. فإن وجدت طلبك منطقياً، يمكنني الاتصال بالأوصياء. مفهوم؟

علت الحمرة خديها وهي تتذكر ردة الفعل حيال طلبها، فنظرت إلى خافيير بطرف عينها، ثم قالت له بنبرة ملؤها الغضب: «لا يلزمني شيء مطلقاً. جلّ ما فعلته هو أنني طلبت طلباً معقولاً، فعاملوني كأنني طفلة مدللة».

أرخى خافيير يديه على المقود، وهو يفكر أنها تبدو أشبه بفتاة في العاشرة من عمرها، وقال لها: «ما عليك سوى أن تطلعيني على طلباتك المعقولة».

التوت شفتاها المطليتان بأحمر الشفاه ارتياباً، هل يحاول خافيير العزيز على قلبها التحكم بها؟ هل ستلقى أفكارها رفضاً قاطعاً من قبله؟ على أي حال، إن خافيير هو الشخص الوحيد في العالم الذي يستطيع انتقادها من دون أن يستعمل معها وسائل الإكراه. قالت له بنبرة دفاعية لاذعة: «تعلم جيداً أن هناك مبالغ طائلة باسمي في المصرف، ومع ذلك، فإن

الفرق الوحيد بيني وبين أولئك الذين ينامون في مداخل المباني وعلى الأرصفة، وليس لديهم من يعتني بهم، هو أنني أملك سريراً أنام عليه فضلاً عن ثروة طائلة فلمَ لا أستطيع إنفاق بعض المال لكي أشعر بالمتعة؟».

واستقامت في مقعدها الجلدي الوثير، منتظرة سماع محاضرة حول الانفاق بلا وعي.

- ثمة فرق ثالث بينك وبين هؤلاء المشردين يا زوي.

قال خافيير لها ذلك بصوت خافت وقد رق قلبه لدى سماعه حديثها عن الفقراء.

- ثمة أشخاص يهتمون لأمرك وأولهم جدتك. صحيح أنها لا تظهر لك حقيقة مشاعرها، إلا أن أمرك يهمها فعلاً، وإلا لما بذلت الجهد لتجعلك على صورة الفتاة المثالية التي رسمتها في خيالها.

تجاهل تذمرها الساخر، وانعطف بالسيارة ليسلك الطريق المؤدي إلى سيرانسيستر وهو يضيف بحدة:

- وأنا أيضاً أهتم لأمرك، وإلا لما وافقت على استقبالك في منزلي، حين أعربت أليس لي صراحة عن عجزها عن رعايتك. وبالعودة إلى اهتمامك بالمشردين أظن أنه ثمة طرق أفضل لمساعدتهم من توزيع المال يميناً وشمالاً. يمكننا مناقشة هذا الموضوع بعد استلامك إرثك، إن بقيت أفكارك الخيرة هذه على حالها. اتفقنا؟».

أومأت زوي برأسها علامة الموافقة، إلاّ أن الدموع الحارة كادت تخنقها، وتركتها عاجزة عن الكلام.

لقد قال خافيير إنه يهتم لأمرها... إنه الإنسان الوحيد الذي يحرك مشاعرها الدفينة، ويجعلها على شفير البكاء.

غير أن هذه النوبة العاطفية ما لبثت أن تبخرت في الهواء حين أعلن

خافيير بنبرة هادئة: «وبما أن مستقبلك يهمني. أصر على أن تتابعي تعليمك!».

أوقف خافيير السيارة أمام الإشارة الحمراء، ورماها بنظرة عجلى.. بدت إمارات التمرد بادية واضحة على تعابير وجهها وهي تجيبه بنبرة لا تخلو من الشعور بالنصر: «لقد هربت من المدرسة، ولا أظنهم سيقبلون بي ثانية!».

- ستنضمين إلى مدرسة في غلوسيستر، وسيتولى جو راماي توصيلك إليها، وإرجاعك منها يومياً. أظنك تتذكرين مدبرة منزلي السيدة راماي. جو هو زوجها، وهو مسؤول عن الحديقة. طلبت من السيدة راماي السهر على راحتك أثناء غيابي عن المنزل.

كيف يمكنها أن تنسى إيثيل راماي! تذكر جيداً أنها سمحت لها بمساعدتها في تحضير فطائر اللحم المفروم، أثناء احتفالات عيد الميلاد الأخير الذي قضته برفقة والديها. فقد ظلت ذكريات ذلك اليوم حيّة في خلايا ذهنها. إلا أنها نادراً ما تعود بالذاكرة إلى الماضي الأليم الذي يشعرها بضعفها، في وقت تحتاج فيه إلى كل ذرة من قوتها..

- بقي أمر أخير!

قرر خافيير أن يقسي قلبه ويقول لها صراحة إنها تبدو أشبه بفتاة الشارع!

- أظن أن ملابسك تعطي انطباعاً سيئاً عنك.

كيف يسعه أن يبلغها الرسالة من دون جرح مشاعرها؟

- علاوة على ذلك، أرى أنها لا تنصفك. فأنت طفلة جميلة، وشعرك كان رائعاً!

تجاهلت زوي نعته لها بالطفلة، وركزت اهتمامها كله على عبارتيّ «جميلة» «ورائع». أحست كأن العناية الإلهية أرسلته إليها.

نظرت إليه بعينين مشدوهتين وسألته: «ماذا يعني ذلك؟».

وتقطعت أنفاسها وهي تتساءل في سرها إذا ما كان اهتمامه بها يتخذ منحنى شخصياً..

- أزيلي تلك الصبغة المروّعة عن شعرك، ودعيه ينمو ثانية. وسنذهب معاً لشراء ملابس جديدة تليق بفتاة مرموقة مثلك، اتفقنا؟

لم تكن المسألة شخصية بقدر ما توقعت، ولم تسمعه يعلن لها صراحة عن إعجابه بها، لكن على الرغم من خيبة أملها، أقرت في سرها بأن الحياة معه أفضل بكثير من العيش في ظل جدة عجوز متزمتة. ومن يدري؟ فبعد مرور سنة ونصف، أو ربما أكثر، ستمحى حتماً صورة الطفلة الصغيرة من رأسه لتحل محلها صورة المرأة الشابة. لن تتوانى زوي عن تنفيذ كل ما يطلبه منها، ولكنها لن تفصح له عن ذلك.

- دعنا نضع بعض النقاط على الحروف! طلبت مني أولاً أن أعود إلى المدرسة، وتريد الآن أن تفرض عليّ أزيائي. ولكن ما الذي سأحصل عليه في المقابل؟

كبح خافيير ابتسامة عريضة كادت ترتسم على ثغره، فهو قادر على التعرف على المناورات عن بعد.

ذاقت الطفلة الأمرين خلال السنوات الثماني التي قضتها مع أليس روثويل، حتى طفح الكيل بها، ولم تعد قادرة على تحمل المزيد.

- إن نفذت كل ما أطلبه منك، ستنالين مكافآت تليق بفتاة راشدة؛ رحلات تزلج في الشتاء، إجازات في إسبانيا، وباريس. وجلّ ما تتمنينه. اتفقنا؟

غمرتها موجة من السعادة العارمة.. كل هذه الأمور برفقته! إنها الجنة على الأرض!

- اتفقنا؟

١ ـ طلب غريب

وبعد مرور ستين ونصف...

- أرجو أن تعذرني على إزعاجك يا سيد ماسترز.

توخت إيثيل راماي الحذر في كلامها وهي تتأمل خافيير يترجل من سيارته، ويصفق الباب خلفه بعنف. ليتوجه بعدئذٍ، عبر الممر المفروش بالحصى، نحو باب واكهام لودج الأمامي، الذي تركته مفتوحاً.

لم تغفل عينا مديرة المنزل، التي كانت ترتجف من الذعر، عن فمه المتوتر، وكتفيه المتصلبتين البارزتين من تحت قميصه القطني الأبيض.

بدا واضحاً أن نيران الغضب تتآكله، وهل يمكنها أن تلومه؟ فهو صاحب إمبراطورية ضخمة في عالم البناء، امتدت جذورها إلى أنحاء العالم كله. وعليه أن يسهر ليل نهار، لتبقى عجلة العمل في حركة دائمة بلا انقطاع. وأغلب ظنّها أنه ليس ممتناً لها وقد وجد نفسه مرغماً على العودة إلى المنزل، من دون سابق إنذار. غير أنها لم تجد أمامها حلاً آخر.

- أحسنت صنعاً، يا إيثيل.

قال لها ذلك وهو يبذل جهداً بالغاً ليحافظ على رباطة جأشه، لا سيما بعد أن قرأ الذعر في عينيها، وتابع كلامه: «فاللوم لا يقع إلا علي أنا وحدي. كان حري بي أن أراقبها عن كثب».

نعم، الذنب ذنبه وحده. فخلال الأربعة عشر شهراً الماضية، تفادى خافيير كل اتصال مباشر بزوي، لاسيّما بعد الحادثة التي وقعت قرب حوض السباحة في منزل والديه الشتوي، في جنوبي إسبانيا. صحيح أنه لم

يجد يومها مخرجاً أفضل لذلك المأزق، إلا أن التطورات التي حصلت تشير إلى أنه أخطأ في الحكم على الأمور.

- أين هي؟

وإذا بحيوان صغير كث الشعر، يقفز بين رجليه المبعدتين بسرعة البرق، ويتوجه نحو الممر، حيث وقف لاهثاً، تحت أشعة شمس حزيران الحارقة، رافعاً رأسه إلى الأعلى.

- ما هذا، بحق السماء؟

- إنه بوزي!

وتنفست إيشيل الصعداء قليلاً إذ بدا لها أن الانزعاج الذي يشعر به رب عملها ليس ناتجاً عن الرسالة التي كتبتها له. نادراً ما يفقد خافيير رباطة جأشه، ولكن عندما يحصل ذلك، فإن العواقب تكون وخيمة. ولم تشأ أن يصب جام غضبه عليها في تلك اللحظة.

هزت كتفيها بلا مبالاة، ورسمت على ثغرها ابتسامة عريضة وهي تحول نظرها إلى الكلب الصغير قائلة: «إنه كلب الآنسة زوي الشريد، ورفيقها المخلص الذي لا يفارقها أبداً، فبعد أن أمضى أياماً عدة هائماً على وجهه في شوارع البلدة، قررت أن تأويه في المنزل. أخشى أن ويره يتساقط في كل مكان، ولكنني أزلت عنه البراغيث».

أطلق خافيير تنهيدة عميقة؛ ها قد أضيف هذا الكلب البشع المنظر إلى مجموعة الحيوانات التي التقطتها زوي.

وقد ضمت هذه المجموعة حتى الآن ثلاث قطط، بالإضافة إلى جرو ثعلب، وجدته ضالاً، ولكنه بات الآن قادراً على العودة إلى ذويه في الغابة. وها هي تفتح اليوم أبوابها أمام هذا الكلب المقيت.

منذ نعومة أظافرها وزوي تعاني من حرمان عاطفي مضنٍ حرمان لم تقوَ على التعبير عنه إلا من خلال تعلقها الشديد بتلك الحيوانات

الشريدة. لهذا السبب، لم يعترض خافيير على إيوائها لها، طالما أنه لن يهتم بها.

- أين هي الآن؟

عاد يسألها عنها فيما كانا يجتازان الرواق الفسيح البارد.

- إنها تتعلم قيادة السيارة.

وعلت وجه إيشيل إمارات القلق. إمارات لم يفهمها خافيير في حينه.

فمنذ بضعة أسابيع اتصلت زوي به لتعلن له عن رغبتها بشراء سيارة. لم يعترض خافيير على طلبها المنطقي، لاسيّما أنها ناهزت التاسعة عشرة من عمرها. فاتصل بالأوصياء عليها وأقنعهم بأن يرسلوا لها المال اللازم.

لم يجد خافيير فرصة أفضل من انشغال زوي في تعلم القيادة ليسأل مديرة المنزل عن سبب إرسالها تلك الرسالة التي وصلته عبر الفاكس، فيما كان في أحد مواقع البناء في جنوب فرنسا.

- نحتاج إليك هنا، فالآنسة زوي تعاشر أشخاصاً مريبين. بذلت أنا وزوجي كل ما في وسعنا، لكننا لم نفلح.

عليه أن يطلع على المزيد من التفاصيل قبل أن يواجه زوي، وسألها: «أظن أن أمامنا متسعاً من الوقت، لترسمي لي صورة دقيقة عن الوضع».

أمسكها بمرفقها السمين وقادها إلى غرفة الجلوس التي تغمرها أشعة الشمس. أبت مديرة المنزل أن تجلس في حضوره، وفضلت أن تبقى واقفة، وقد بلغ الاضطراب منها مبلغاً فتقطعت أنفاسها.

- لا أظن أن مسألة تعلم القيادة هي المشكلة الأساسية. فالآنسة زوي - باركها الله - أصرت على شراء سيارة رياضية، تخطف الأبصار. حاول جو أن يقنعها بشراء سيارة تليق بسائقة مبتدئة، إلا أنها رفضت الإصغاء إليه، وصممت على الأخذ برأي المدعو أوليفر شيرمان. أتعلم

شيئاً؟ استطاع ذلك الشاب إقناعها بالسماح له بالاحتفاظ بالسيارة، على أن يأتي بعد ظهر كل يوم لتعليمها القيادة. وعلمت من سكان البلدة أنه سائق متهور، حطم حتى الآن سيارتين جديدتين اشتراهما له والده. أتريد سماع الأسوأ بعد؟

وأخذت الحمرة تزحف شيئاً فشيئاً إلى خديها: «تعرفت الآنسة زوي على مجموعة من الشبان، تبين لي أنهم يسعون وراء مالها. فبعد بلوغها الثامنة عشرة، زادت نفقتها بشكل ملحوظ. ولا شك عندي أنها تنفقها كلها على أولئك الطفيليين، وأكثرهم سوءاً ذلك المدعو شيرمان، الذي يلاحقها كظلها. حاولت أن أحذرها، إلا أنها لم تكترث البتة، واستمرت في الخروج لساعات طويلة. وغالباً ما أراها تعود إلى المنزل عند الفجر... وثمة أمر آخر...».

توقفت عن الكلام لدى سماعها دوي محرك سريع، وأزيز مكابح، ثم تناثر وابل من الحصى.

- ها هما!

زم خافيير فمه، وتقدم نحوهما بخطوات واسعة تدل على نفاد صبره. توقفت سيارة اللوتس الصفراء اللون إلى جانب سيارته الجاغوار، واستطاع أن يرى تعابير الخوف على وجه زوي من خلال الحاجز الزجاجي. فاستشاط غضباً، إلا أنه قرر أن يرجئ الكلام معها إلى وقت لاحق، ريثما يهتم بأمر صديقها. وعلى الفور، فتح باب السائق ونزع المفاتيح من مكانها ثم أمره: «أخرج!».

جاءت هذه العبارة اليتيمة أشبه بدوي ساحق، مشوب بغطرسة لاذعة. غير أن إمارات الذهول ما لبثت أن تلاشت عن وجه أوليفر شيرمان، لتحل محلها إمارات التحدي. فأجابه مدمدماً: «وإن لم أفعل؟».

صر خافيير على أسنانه قائلاً: «سأدعي بأنني لم أسمع ما قلته!».

فمن خلال الكلام الذي سمعه عن شيرمان، ابن سمسار الأراضي الوحيد المدلل، ذي السمعة السيئة، تبين له أنه شخص مريب، وتقربه من زوي غير مرغوب فيه.

- أمامك ثانيتان فقط لتترجل من السيارة من تلقاء نفسك.

حملت نبرة صوته تهديداً فولاذياً، فضل الشاب ألا يتجاهله.

- ولكن..

وتوهج خدا أوليفر، بينما راحت عيناه الزرقاوان تبحثان عن عيني زوي التي وقفت عند الطرف الآخر من السيارة، حاملة بين يديها بوزي وهو يلعق وجهها.

استعاد الشاب القليل من شجاعته، وقد التقت عيناهما لثوانٍ قليلة، فقال له متشدقاً:

- سمحت لي زوي باستعمال سيارتها. وأظن أن القرار يعود إليها وحدها، ولا علاقة لك بالأمر.

- أحقاً؟

وتحولت عيناه الرماديتان إلى كرتين قاتمتين من الجليد، فخطا أوليفر شيرمان خطوة إلى الوراء، وهو يرتجف من الخوف، ثم استدار على عقبيه ومضى في سبيله.

وقفت زوي لدقيقة أو دقيقتين تتأمله وهو ينسحب مخذولاً، وقد اجتاحتها موجة من الارتياح.

لم يسمح لها أولي طوال النهار بالجلوس خلف المقود، مدعياً أن لديه أموراً أخرى أكثر أهمية من الجلوس إلى جانب سائقة مبتدئة، لا تستطيع التمييز بين دوّاسة الوقود وماسحة الزجاج.

وعوضاً عن ذلك، اصطحبها إلى كينيل كومون وحاول التودد إليها.

كانت زوي معتادة على تلميحاته الخبيثة وكلامه المعسول، وعرضه

المستمر للزواج بها. ولم تواجه يوماً صعوبة في التعامل معه. إلا أنه كان اليوم ثقيل الظل، واضطرت إلى مقاومته، فتحولت نزهتها إلى كابوس. وخلال طريق العودة، أخذ يتصرف كشخص مسعور، ما أثار اضطرابها إلى حد بعيد.

عليها أن تتصل به لتلغي موعدهما هذا المساء. لقد اتفقا على الخروج برفقة مجموعة من الأصدقاء، إلا أنها تخشى أن يتمادى أمامهم بالسخرية من الوصي عليها، فيصفه بالمحافظ أو الظالم. وإن حاولت الدفاع عنه - وهي لن تتوانى عن ذلك أبداً - سيخالونها غريبة الأطوار. علاوة على ذلك، لم تكن تريد الخروج وخافيير موجود في المنزل.

حولت انتباهها إليه وقد أحست بالإثارة تسري في جسمها، فيما راح خافيير يراقب أولي وهو يجتاز الممر الطويل.

منذ أن وقعت عيناها عليه، وهو يتوجه نحو السيارة ووجهه أشبه بسحابة راعدة، أخذ قلبها يتخبط بين ضلوعها.

لقد طال غيابه كثيراً، وشوقها إليه راح يزداد يوماً بعد يوم.

وضعت كلبها المدلل على الأرض والتفت حول سيارتها الرائعة لتقف قبالته، فرأته يدس مفاتيح سيارتها في جيب بنطلون بذلته الأنيقة. لم تغفل عيناها عن رؤية تصلب كتفيه من تحت قميصه القطني الأبيض، وهو يستدير ليواجهها: «ها قد عدت أخيراً. هل تذكرت؟».

خرجت الكلمات من فمها المبتسم بصعوبة، وقد تقطعت أنفاسها، كما يحصل عادة معها كلما وجدت نفسها بقربه.

لم يتفوه خافيير بكلمة، وبقي واقفاً ينظر إليها بإمعان من خلال رموشه السوداء الكثيفة، وقسمات وجهه خالية من أي تعبير. ثم سألها بانشداه: «تذكرت، ماذا؟».

لم يكن عائداً ليحتفل غداً بعيد ميلادها! ماتت الابتسامة على ثغرها لتعود وتنبثق من جديد... لا يهم، المهم أنه عاد إلى المنزل.

كم تتوق إلى الارتماء بين أحضانه لترحب به! إلا أنها فضلت ألا تفعل. فبعد ما حصل بينهما في إسبانيا، قد يخالها تتودد إليه.

تورد خداها وقد مر في ذهنها شريط تلك الذكرى المحرجة، ذكرى انكشاف سرها، فأجابته متلعثمة وهي تهز كتفيها لا مبالاة: «لا عليك، انسَ الأمر».

ورمته هذه المرة بابتسامة مهذبة فحسب، فعليها ألا تطلق العنان لمشاعرها مهما كلف الأمر.

- تسرني رؤيتك من جديد. كم ستطول إقامتك؟

من المؤكد أن قلبها سيتوقف عن الخفقان، وتقع على الأرض مغمياً عليها من خيبة الأمل إن قال لها خمس دقائق.

رفع إليها عينين ملؤهما الغضب؛ كان حرياً به أن يحرص على مراقبتها عن كثب. عادت إلى ذهنه تلك الذكرى المريعة، ذكرى الإجازة الوحيدة التي أمضاها برفقتها في منزل والديه، قرب الميريا.

كانت زوي تسبح يومها في حوض السباحة وما إن لمحته يدنو منها، حتى أسرعت تخرج من الماء وترتمي بين أحضانه، مغدقة عليه القبلات الحارة وهي تقول: «أحبك... أحبك... لطالما أحببتك!».

يومها، كان صده لها حازماً ورقيقاً في آن معاً. هل كان رقيقاً حقاً؟ في مطلق الأحوال، أفقدته تلك الحادثة توازنه، وجعلته يهمل واجباته لأول مرة في حياته. إذ تعمد أن يتفادى رؤيتها، آملاً أن يتلاشى هذا الافتتان الطائش ويتحول إلى مجرد ذكرى محرجة.

أخذ نفساً دلّ على نفاد صبره، وفكّر أنه يضيع وقته سدى. فهو لم يقطع تلك المسافة الطويلة ليستعيد ذكرى أخطاء الماضي.

- سأبقى إلى أن نجد حلاً مناسباً بشأن مستقبلك! هلاّ دخلنا إلى المنزل؟

كبحت زوي توترها وخيبة أملها، ولحقت به إلى الداخل، بينما سار كلبها المخلص مهرولاً في أثرها.

بدا خافيير عاجزاً عن إخفاء غضبه ونفاد صبره. أتراه غاضباً منها لأنها لم تلتحق بالجامعة كما طلب منها أن تفعل أم تراه سئم من المسؤولية الملقاة على عاتقه، وبدأ ينظر إليها وكأنها حمل ثقيل يريد التخلص منه؟ أتراه ندم على موافقته على طلب جدتها أليس؟

لحقت زوي به إلى غرفة الجلوس، مسلمة في قرارة نفسها بأن تصرفاته كلها تثبت ظنونها. فبعد وفاة والديها، وصد جدتها أليس لها، تعلمت ألا تتعلق بأحد أبداً خشية أن يلحق بها الأذى.

ما عدا خافيير!

لمَ لم يفارق حبه قلبها وبقيت تتوق إليه بكل جوارحها؟ لمَ تركت نفسها عرضة للألم، منذ اللحظة الأولى التي وافقت فيها علىَ الصفقة التي عرضها عليها، بُعَيد مغادرتها منزل جدتها؟

لطالما تباهت بتحليها بقوة لا مثيل لها. ولكن هل هي قوية بما فيه الكفاية لتواجه حقيقة معاملته لها وكأنها مصدر ازعاج له، واعتبار مطالبتها البسيطة بأن يوليها شيئاً من اهتمامه، مجرد مضيعة لوقته الثمين؟

وقت كان يفضل أن يضيعه في العمل، أو إلى جانب امرأة متكلفة تشاطره سريره!

عليها أن تثبت له مدى قوتها، بدءاً من هذه اللحظة!

تجاهلت يده الطويلة الممدودة نحو كرسي ذي ذراعين وضع إلى جانب المدفأة المحاطة التي غصت بالأزهار، وتوجهت نحو المقعد الوثير المجاور للنافذة، حيث استرخت بتكاسل، ليستكين بوزي في حضنها.

بقي خافيير واقفاً، فتوتره الشديد منعه من الجلوس، كم تغيرت زوي منذ لقائهما الأخير! فشعرها الأشقر الباهت نما من جديد وأحاط

بوجهها، مظهراً جمال قسماتها، وبشرتها البرونزية بدت رائعة وقد لفحتها شمس الصيف الحارة. كانت ترتدي بنطولناً قطنياً قشدي اللون، أبرز جمال ساقيها الطويلتين. وخصرها النحيل، تعلوه قميص صفراء اللون ذات أزرار من الأمام ودون أكمام. بدت أطول قامة، وأكثر رشاقة مما عهدها. كيف يعقل ألا يفتتن شيرمان بها بسهولة؟ زد على ذلك أن الإرث الذي ستحظى به قريباً، يجعل منها صيداً ثميناً من الصعب التخلي عنه.

عادت إلى ذهنه ذكرى جسدها ملتصقاً بجسده، وليس عليها سوى ثوب السباحة. صحيح أنه تصرف يومها بنبل وحكمة، لكنه واثق تماماً أن ذلك الحقير أولي، لو كان مكانه، فإنه سيستغل الموقف.

ضم كفيه بعصبية فبدت مفاصل أصابعه بيضاء ناصعة مقارنة ببشرته البرونزية المشدودة.

قبل أن يشن هجومه عليها بكل ما توفر لديه من أسلحة، عليه أن يدرك مدى جدية علاقتها بشيرمان، ويطرح عليها بعض الأسئلة حول أصدقائها الجدد الذين تحدثت إيثيل عنهم، إذ غالباً ما تغالي مديرة المنزل في ردة فعلها.

دس يديه المضمومتين في جيبي بنطلونه، وقطب جبينه محاولاً أن يجد الكلمات المناسبة. إلا أنه عجز عن لملمة شتات أفكاره التي بقيت مركزة على نور الشمس الذي تسلّل من النافذة خلفها، مضفياً على شعرها الأشقر مظهراً جذاباً لامعاً. وتساءل خافيير إن كان ملمس ذلك الشعر حريرياً ناعماً بقدر ما يبدو عليه.

ازداد عبوس وجهه حدة.. فقد أزعجه عجزه عن تركيز اهتمامه على المسألة التي بين يديه، هذا العجز الذي لم يعرف له مثيلاً من قبل. أدركت زوي وهي ترى تقطيب حاجبيه السوداوين اللذين يعلوان عينيه البراقتين انه يتمنى في سره لو أنه لم يرها أبداً. فأحست بخيبة أمل شديدة أطفأت

شعلة النور في عينيها.

منذ أربع سنوات، وقعت زوي في حبه، ومذاك الحين وصورته لا تفارق خيالها. سنوات طويلة من الحيرة، تنتظر خلالها زيارة خاطفة منه أو رسالة قصيرة. وقلبها يقفز من مكانه كلما سمعت رنين الهاتف، آملة أن يكون خافيير المتصل ويريد التحدث إليها. غير أن سنة بكاملها مرت عليها، ولم تلمح خلالها طيفه.

شعرت أنها تتصرف مثل امرأة حمقاء تيّمها الحب وتركها خائرة القوى. وفكرت أن من الأفضل لها أن تضع حداً لذلك في الحال، فهي لم تحرك فيه يوماً إلا الإحساس بالسخط. ولا شك أن التوتر البادي على وجهه المتجهم هو خير دليل على ذلك. ماذا عليها أن تفعل؟

طرحت هذا السؤال على نفسها ونيران التمرد تتأجج في أحشائها. عليها أن تبني حياتها بعيداً عنه، وتكف عن التحسر على ما لم يكن من نصيبها.

في ذلك الصمت المشحون بالتوتر الذي خيم عليهما، والذي كانت تخرقه، بين الحين الآخر، أنفاسه غير المنتظمة، لاحظت زوي أن فمه بدأ يسترخي شيئاً فشيئاً. بادرت إلى الكلام، قبل أن يسمعها كلاماً قاسياً قد يؤدي إلى وقوع شجار بينهما. لكن زوي تحتاج إلى الحفاظ على رباطة جأشها، لا سيما إن كانت تأمل أن ترى تصميمها الحديث الولادة على نسيان مشاعرها نحوه، وبناء حياة جديدة بعيداً عنه، ينمو ويكبر.

- قلت إنك تريد أن تتحدث عن مستقبلي!

- تماماً!

ضاقت عيناه وهو يتأملها تربت على أذني الكلب العريضتين الليتين. وفكر أن ذلك المخلوق الغريب يحال نفسه في الجنة.

رفعت زوي ذقنها بكبرياء وإمارات التحدي بادية في عينيها، ثم قالت: «أظن أن الوقت قد حان لننفصل عن بعضنا البعض».

قالت له ذلك بنبرة رصينة، قبل أن تتابع: «بلغت السن القانونية. وخلال السنوات الماضية، التزمت من جهتي، بشروط الصفقة التي عقدناها معاً. أما أنت، فقد التزمت بها بحرفيتها، لكن ليس بروحها».

شعر خافيير بالارتباك لدى سماعه نبرة صوتها الباردة التي لم تخل من السخرية وسألها: «أتقصدين القول إنني لم التزم بالوعود التي قطعتها؟».

- بالطبع، لا.

وأشاحت بنظرها بعيداً عن قسمات وجهه الرائعة. فالإمعان في تأمل خديه البارزين وفمه الأنيق النابض بالرجولة، لن يساعدها في المضي قدماً في العلاج الذي وصفته لنفسها.

- أنهيت دراستي بنجاح بانتظار المفاجآت الممتعة التي وعدتني بأن تغدقها علي.

أعلنت له ذلك ببرودة مطلقة، قبل أن تكمل كلامها: «فأرسلتني في رحلة تزلج، وقامت صديقتك بمرافقتي. أظنها تدعى غليندا، أليس كذلك؟ هل كنت مضطراً حقاً إلى رشوتها، كما علمت منها؟ أرسلتني بعدها إلى باريس ولكن هذه المرة برفقة صوفي، ولا يمكنني أن أنسى البحيرات الإيطالية التي اصطحبتني إليها صوفي أيضاً...».

رفع يده عالياً مقاطعاً كلامها: «كفى!».

لم تشعر زوي بالانزعاج مطلقاً، إذ كانت تعي أنه ليس غبياً، ولا بد أنه فهم رسالتها. فالحق يقال إن تلك الإجازات كانت مملة من دونه.

علاوة على ذلك، لم يسافر خافيير برفقتها إلا خلال إجازة عيد الفصح منذ سنتين. إجازة كانت الشاهدة على تلك الحادثة المخجلة قرب حوض السباحة في منزل والديه. تلك الحادثة التي عقدت زوي العزم على نسيانها والادعاء كأنها لم تحصل أبداً..

جاء رده بالغ الوقار، حين قال: «أردتك أن تمضي وقتاً ممتعاً

فحسب! كنت أهتم لأمرك، ولكنني لا أجيد لعب دور الحاضنة».

كنت أهتم لأمرك... لقد استعمل صيغة الماضي. ليست بالنسبة إليه سوى طفلة يتيمة أشفق قلبه عليها، فأخذها تحت جناحه، ولكن بعد بلوغها سن الرشد أصبح عبء هذه المسؤولية مضنياً، وهو يتوق إلى التخلص منها.

لدقائق قليلة مضت، كانت هذه الحقيقة مجرد شكوك في ذهنها. لكن عند سماعه يتفوه بتلك الكلمة، أحست بالألم يعتصر فؤادها، وكادت الدموع تنهمر من عينيها. دموع حارقة كبحتها، وهي مصممة على التعامل مع هذا الموقف كفتاة راشدة. عليها أن تعطي نفسها فرصة لتنسى أمره وتبدأ حياتها بعيداً عنه.

- تماماً..

قالت ذلك بجفاء على الرغم من موجة الغثيان التي اجتاحتها، ثم تابعت تقول: «لم أعد أحتاج لمن يحضنني ويرعاني. ويمكنك أن تعتبر نفسك حراً من هذه المسؤولية، بدءاً من هذه اللحظة. سأطلب من الأوصياء عليّ أن يسمحوا لي بشراء منزل صغير، فأنا أريد أن أستقل».

زم خافيير شفتيه سخطاً: «تستقلين؟ وما الذي تريدين فعله؟ أتريدين التسكع برفقة شخص مثل شيرمان، والسهر حتى ساعات الصباح الأولى، من دون أن يحاسبك أحد، واقتناء سيارات سريعة لا تملكين الخبرة اللازمة لقيادتها؟ لن يحصل ذلك طالما أن قلبي يخفق بالحياة!».

التمعت عينا زوي ببريق التمرد؛ يبدو أن إيثيل لم تصن لسانها، وهذا هو السبب وراء ظهوره المفاجئ! لم يكن مشتاقاً إليها ويتوق لإمضاء بعض الوقت برفقتها!

- تحتاج كل فتاة إلى القليل من اللهو.

ونظرت إليه بطرف عينها، متظاهرة بلا مبالاة تتناقض مع الأحاسيس الجياشة المتدافعة في داخلها.

فبعد أن حملت معاناتها لوقت طويل، قررت أن تفعل شيئاً يسليها، فانضمت إلى نادي التنس. وهناك، تعرفت على أصدقاء جدد، وراحت تنفق المال على شراء الملابس الجديدة ودعوة الأصدقاء إلى المطاعم والنوادي الفاخرة.

كانت تدرك أن أصدقائها يسعون وراء مالها ولكنها لم تعر المسألة اهتماماً، لأن صحبتهم ملأت عليها حياتها.

صحيح أن أولي لا يكف عن إسماعها كلاماً في الحب، إلا أنها لا تصدقه. فوحده بوزي وقططها الثلاث تقدم لها الحب دون قيد أو شرط. وتأكيداً على ذلك، قفزت قطة سوداء من النافذة خلفها، واستقرت بفرح على صدرها، مسببة الإزعاج لبوزي.

عقد خافيير حاجبيه الداكنين وقد أحس بموجة من الشفقة تجتاحه؛ قالت إن الفتاة تحتاج إلى اللهو في حين أن جل ما تحتاج إليه هو الحب. حب تاقت إليه منذ كانت في الثامنة من عمرها، وجعل منها فتاة صعبة المراس، وضعيفة، وطريدة سهلة لأمثال شيرمان. وتقع عليه وحده مسؤولية الحفاظ على سلامتها.

تنهد خافيير وانضم إليها على المقعد تحت النافذة. ثم أخذ الكلب الكث الشعر ووضعه في حضنه.. فتمكنت الهرة السوداء من الاسترخاء على ركبتي زوي التي راحت تمسد شعرها الطويل المتدلي على وجهها. تعلقت عيناه بحركات تلك الأصابع الطويلة النحيلة؛ إلا أنه ما لبث أن لملم شتات نفسه وأعلن لها بفتور: «أريدك أن تعلمي أنني أعترض على إقامتك في منزل لوحدك. ولكنني لا أريد افتعال شجار بيننا بسبب ذلك».

لم تنبس زوي ببنت شفة، غير أن تصلب كتفيها لم يخفَ عليه.. قاوم رغبة جامحة سيطرت عليه بضمها إلى صدره ومعانقتها مطمئناً، علّ ذلك يريح ضميره، لكن بعد ما حصل بينهما في إسبانيا خشي أن تسيء فهمه.

- أقترح عليك أن تأخذي دروساً في قيادة السيارات على يد شخص محترف. وتركني، في الوقت الحالي، سيارة اللوتس في المرآب، وذلك إلى أن تصبحي قادرة على قيادتها. كما علينا أن نفكر في مستقبلك، وسأحرص على أن أبقى دوماً إلى جانبك لمساعدتك. قلت مرة إن الأعمال الخيرية تهمك، وأظن أنها نقطة انطلاق جيدة. من ناحية أخرى..

توقف قليلاً عن الكلام، وقد وجد صعوبة في الاستمرار بلعب دور العم العطوف، من دون أن يرى على وجهها أي تعبير يدل على تجاوبها معه. إلا أنه عاد يقول: «يمكنك أن تتابعي دروساً في أي مادة تتلاءم مع ميولك...».

وضعت زوي القطة على الأرض، ونهضت من مكانها برشاقة، ثم غادرت الغرفة من دون أن تتفوه بكلمة. وعلى الفور، قفز الكلب الصغير من حضن خافيير وأسرع يلحق بها.

أطلق خافيير تنهيدة يأس، وشعر بانقباض في صدره بسبب الذنب. إذ أدرك أنه هو وحده الملام على عنادها وعدم تجاوبها معه، فقد كان يجدر به أن يبقى على اتصال دائم بها. عندما كانت طفلة، كان يحسن التعامل معها، ويلقى تجاوباً سريعاً منها. إلا أنه لم يعد يفهم ما يعتري هذه الشابة الغامضة.

لم تطلق زوي العنان لدموعها، فهي لم تسمح يوماً لنفسها بالبكاء، إلا أنها وجدت صعوبة كبرى في التخلص من ذلك الاحساس بالألم. لساعة خلت، كانت مستعدة للقبول بتدخله في حياتها، بكل رحابة صدر، لاسيّما إن كان ذلك يعني أنها ستجده دوماً قربها. لم تكن لتتوانى عن القيام بكل ما يرضيه، مقابل القليل من الاهتمام بها، علّ طبيعة المشاعر التي يكنها لها تأخذ منحى آخر. لكن ذلك لن يحصل أبداً، كما فكّرت. وعليها أن تتقبل الواقع وتكف عن الاستغراق في أحلام اليقظة.

رن جرس هاتفها الخليوي، فتربعت على السجادة في غرفتها لترد على اتصال أوليفر شيرمان. بدا جلياً أن شجاره مع خافيير قد أزعجه، إذ قال لها: «كم هو سافل ومستبد ذلك الوصي! آمل ألا يفسد قدومه خططنا. لن أتمكن من المجيء لوحدي لاصطحابك، لكن غي رحب بالفكرة، وسيحضر جيني معه. سنمر لاصطحابك عند السابعة، وقد حجزت طاولة في مطعم انطون عند السابعة والنصف. كما يمكننا متابعة السهرة في مكان آخر. اتفقنا؟ أتعلمين شيئاً؟ سآخذ سيارة اللوتس عندما نرجعك إلى المنزل، شرط أن يكون ذلك الوصي مستغرقاً في النوم. كم أكره البقاء من دون سيارة! ولكنني لن أتمكن من شراء سيارة جديدة قبل أن أحصل على تخفيض ضريبي من شركة التأمين.. هل تسمعينني، يا زوي؟».

أخذت زوي نفساً عميقاً... بعد عودة خافيير إلى المنزل، كانت تنوي أن تلغي السهرة. لكن الأمور تغيرت، وعزمها على نسيان حبه بدا متزعزعاً بعض الشيء، لذا يستحسن ألا تمضي برفقته وقتاً طويلاً.

والحق يقال، إن جلّ ما تحتاج إليه لطرد خافيير من ذهنها، هو قضاء أمسية ممتعة مع الأصدقاء. وعليها أن تستغل هذه الفرصة لتحذر أولي من تكرار ما حصل بعد ظهر اليوم إن كان حريصاً على صداقتهما، وعلى استعارة سيارتها.

- سأكون جاهزة عند السابعة!

قالت له ذلك بفتور ثم أقفلت الخط.

لم تكد الساعة تدق السابعة إلا خمس دقائق حتى كانت زوي تقف عند عتبة باب المنزل الأمامي بكامل أناقتها...

بعد أن غسلت شعرها الطويل، شدته إلى الخلف بمشبك ذهبي لامع، تلاءم مع السوار الذهبي العريض الذي وضعته في معصمها وارتدت ثوباً حريرياً ذا لون برونزي مائل إلى الصفرة، من دون أكمام ومن دون ظهر،

وانتعلت صندالاً برونزي اللون أيضاً، ذا شرائط أضاف قرابة أربعة إنشات إلى قامتها.

صورتها في المرآة أنبأتها أنها تبدو فتاة عابثة. عابثة، ولكن متأنقة! أعادت صورتها إلى ذهنها ذكرى غلاندا وصوفي، اللتين لم تظهرا لها الكثير من الود.

كانت زوي مصممة على الخروج مع أصدقائها والاستمتاع بوقتها برفقة الأصدقاء لتثبت لخافير أنه لا يستطيع التدخل في حياتها. وكم كان ذهول إيثيل عظيماً حين وقعت عيناها عليها وهي تنزل السلم، فبادرتها مائلة: «أظنك ستخرجين للعشاء!».

- أرى أنك دقيقة الملاحظة!

لم يخلُ ردها من السخرية، وكأنها تريد معاقبة المرأة على نميمتها. إلا أنها عادت وندمت على تسرعها، لاسيّما وأنها تحب إيثيل، بالرغم من ميلها إلى إلقاء المحاضرات المملة، ولا تقوى على جرح مشاعرها أبداً. وهكذا، أقسمت في سرها على أن تعتذر منها في الغد، بعد أن لاحظت أن مدبرة المنزل اختفت من أمامها بلمح البصر.

ولم تكد تمر ثوانٍ قليلة حتى أدركت زوي سبب اختفاء إيثيل المفاجئ... إنه خافير، الذي وجدته فجأة واقفاً قربها.

ما إن وقعت عيناه عليها حتى أحس بموجة من الحر تجتاحه. لقد بدت فاتنة للغاية. أما فكرة خروجها من المنزل فكادت تفقده صوابه.

- هل أنت خارجة؟

صر على أسنانه، تاركاً لعينيه حرية التسلل على مفاتن جسمها الرائعة، إلا أنه ما لبث أن أشاح بنظره بعيداً وهو يراها تهز رأسها قائلة، من دون أن ترفع عينيها نحوه: «مع أصدقائي!».

- وشيرمان معهم؟

- طبعاً!

شعرت زوي أنها لا تملك الشجاعة الكافية لتنظر إليه. كان يقف على بعد خطوتين منها، وكل خلية من خلايا جسمها تتحرق شوقاً للمسه. كم تمنت لو أنه يضمها بين ذراعيه القويتين.

من أين لها أن تتخلص من حبه المتربع على عرش قلبها وذهنها مشغول به على الدوام؟

صرت على أسنانها، وأحست بتصلب كتفيها، فراحت تتضرع في سرها أن تطل سيارة غي في تلك اللحظة، لتحملها بعيداً من هنا. أرهفت السمع علها تسمع صوت محرك سيارة من بعيد، وفي تلك اللحظة، أحست بكلمات خافير تسقط عليها سقوط الصاعقة: «أدخلي إلى المكتب في الحال».

وعاد يضيف بتصميم عنيد وقد رآها ترفع رأسها بتحدٍ: «يستحسن أن تدخلي إلى المنزل من تلقاء نفسك، وإلا اضطررت إلى حملك. الخيار يعود إليك ولا داعي للقلق بشأن أصدقائك، سأقول لشيرمان إنك لن تتمكني من مقابلته».

امتزجت في داخلها مشاعر الارتباك المروع بالإثارة المغرية. لم يكن خافير من النوع الذي يطلق التهديدات جزافاً، فهو يعني دوماً ما يقوله. شعرت بجفاف في حلقها، وأدركت أنها إن لم تنفذ ما طلبه منها، سيحملها عنوة إلى الداخل. وجلُّ ما تخشاه عندئذ أن يشتعل في أحشائها فتيل الشوق إليه.

استدارت على عقبيها، ودخلت إلى المنزل، وصوت محرك سيارة غي يتردد في أذنيها. كانت تتوقع أن تساعدها هذه الأمسية الصاخبة على طرد خافير من ذهنها لبعض الوقت، لكنها أقرت في سرها بأن محاولاتها كلها ستذهب هباءً. لا شك أنها كانت مغفلة حين خيل إليها أن من السهل تحقيق ذلك.

وقفت زوي أمام النافذة في المكتب تتأمل الحديقة. وبعد لحظات، التفتت نحو خافيير ببطء بينما كان يقترب منها بقامته الفارعة. شعر بضيق في صدره، وهو ينظر إلى عينيها الساحرتين. ومع أن عينيها الذهبيتين الشبيهتين بقرطي التوباز، اللذين اشتراهما لها من لندن بمناسبة عيد ميلادها، كانتا تبرقان ببريق التحدي، إلا أن فمها الرقيق أوحى إليه بالضعف الكامن في أعماقها، محركاً في قلبه مشاعر العطف.

فكّر أنه لن يجني شيئاً من انتقاده اللاذع لأسلوب حياتها الجديد. ففي الماضي، فرضت عليها جدتها وأساتذتها في المدرسة الداخلية، نظاماً صارماً، لم ينجم عنه إلا التمرد العلني. إنها ليست من النوع الذي يرضى بأن يفرض شيء ما عليه بالقوة. والمشكلة الأساسية هي أنها لم تعد طفلة...

لعله يشعر بالذنب لأنه عاملها كطفلة. بل في الواقع، إنه مذنب فعلاً لارتكابه أشياء كثيرة بحقها وعليه أن يسدد الغرامات المتوجبة عليه.

راح يتأملها وقد تدلت خصلات من شعرها الأشقر حول رقبتها الدقيقة. ولاحظ خافيير نبضها المتسارع من خلال قماش ثوبها المنهدل فوق جسمها الرشيق. توجه نحو طاولة المكتب واتكأ عليها، قبالة تلك المرأة المتألقة التي بدت أشبه بقنبلة موقوتة قد تنفجر في أي لحظة. وفكّر أن امرأة فاتنة مثلها، تتوق إلى الحب الذي لطالما حرمت منه، قد تقع بسهولة في شرك رجل استغلالي مثل أوليفر شيرمان. ووحده خافيير مسؤول عن سلامتها...

فجأة، خطرت له فكرة غريبة، إلا أنه ما لبث أن طردها بعيداً، وقد وجد أن الوقت قد حان ليستهل الحديث، فقال: «لم تسنح لنا الفرصة لتابع حديثنا. هلاّ قلت لي ما الذي تنوين القيام به في المستقبل؟».

بدا صوته أجش بشكل غريب، وأحست زوي بتقلص في معدتها. على الرغم من تصميمها على تجاهل مشاعرها نحوه، إلا أنها لم تستطع

إبعاد عينيها عنه. فعزمها على طرده من المكان الذي شغله طويلاً داخل قلبها، بدا واهياً أمام قوته المغنطيسية التي كانت تؤثر على حواسها كلها وتزرع فيها الفوضى.

لا شك أن التحدث إليه بجفاء وادعاء اللامبالاة أمامه، مهما كان توبيخه لاذعاً، هما الطريقة الأنسب لحماية نفسها. فإن سمحت له بالاطلاع على نواياها الحسنة بمد يد العون للذين لا مأوى لهم، سوف يصر عندئذٍ على الأخذ بيدها ومساعدتها على تحقيق مرادها. وذلك لن يدفعه إلى الابتعاد عنها وتركها وشأنها.

أدركت زوي في سرها أن التسليم أمامه بعجزها عن المضي قدماً بمفردها سيحثه على ملازمتها، وذلك سوف يؤجج نيران لهفتها إليه، أكثر فأكثر، ويذهب قرارها الحكيم بالتوقف عن حبه أدراج الرياح.

فهي تعرف أنه على استعداد ليبذل كل جهد ممكن بغية وضعها على الدرب الصحيح، فيخصص لها المزيد من الوقت، ويختار المؤسسة الخيرية المناسبة لها. وسوف يحرص على إقناع الأوصياء عليها بشراء شقة صغيرة لها قرب مكان عملها. ومن المؤكد أنه سوف يأتي بين الحين والآخر لزيارتها، فيطمئن عليها، مؤدياً بذلك ما يمليه عليه الواجب.

- لا تقلق بشأني!

هزت كتفيها بلامبالاة، وتابعت تقول: «لم تعد مسؤولاً عني، لا تنسَ ذلك. ومن المحتمل أن أتزوج أولي».

قالت له ذلك بتكاسل وهي تعي جيداً أنها تكذب عليه، إذ من المستحيل أن تقدم على خطوة مماثلة. إلا أنها لم تجد سبيلاً أفضل ليدعها خافيير وشأنها. فإذا تأكد له من أنها على وشك الزواج سيشطبها من لائحة المسؤوليات المضنية التي ألقيت على عاتقه.

- طلب يدي عدة مرات...

ورفعت عينيها إليه بازدراء، قبل أن تتابع قائلة: «سأرسل لك بطاقة

دعوة».

أعمى الغيظ الشديد عيني خافيير، وأحس بعضلات كتفيه تتصلب من تحت قماش قميصه. يبدو أن علاقتها بذلك السافل أكثر جدية مما كان تصوّر.

كيف يمكنه أن يقف مكتوف اليدين ولا يحرك ساكناً، وهو يراها تدمر حياتها بزواجها من رجل سيء السمعة، لم يسعَ يوماً للعمل في سبيل كسب رزقه؟

عادت تلك الفكرة الغريبة تراوده، إلا أنه لم يجدها فكرة مجنونة هذه المرة!

- إذا كنت تريدين الزواج، تزوجي بي!

صحيح أن بعض الزوات مجنونة إلا أن هذه لم تكن كذلك، كما فكر خافيير إذ عليه أن يحميها من الرجال الطامعين بثروتها.

عقدت الصدمة لسانها عن الكلام، فتوقفت تحدق فيه بعينين مذهولتين. كم من المرات حاكت في رأسها مشاهد تصورت فيها خافيير وهو يطلب يدها للزواج؟ ربما مليون مرة!

جاهدت كي تتمكن من الكلام. وأخيراً، قالت له بصوت مخنوق: «لا أظنك جاداً في كلامك!».

- لم أكن يوماً أكثر جدية!

أحست زوي باضطراب شديد... إنها اللحظة التي حلمت بها سنوات طويلة، غير أنها...

- ولكنني لا أعجبك!

تأفف خافيير وهو لا يصدق أذنيه. لا تعجبه! دفعه الدم الإسباني الذي يجري في عروقه إلى الشموخ برأسه عالياً، قبل أن يقول: «بدأت أهتم لأمرك منذ اللحظة الأولى التي فقدت فيها والديك، واضطررت إلى

الانتقال والعيش في محيط خالٍ من العطف والحنان. ولم أتوانَ حتى عن إبعادك عن جدتك العجوز المتحجرة القلب. وكم أحببت شجاعتك حين عقدت العزم وقررت القيام بما يحلو لك، فجعلت من نفسك شيئاً مخيفاً!».

وابتسم لها ابتسامة خطفت أنفاسها، وهو يتابع كلامه قائلاً: «وبما أنني أهتم كثيراً لأمرك، قررت أن أعرض عليك الزواج».

هل تجرؤ على ترجمة اهتمامه هذا بالحب؟ هزت زوي رأسها لا إرادياً، وفكرت كيف ستتمكن من أن تردع نفسها؟

أحست بقشعريرة تسري على طول عمودها الفقري. أما خافيير، فعقد حاجبيه الداكنين وقد عادت ذكرى حادثة إسبانيا تمر في ذهنه وتزيد من توتره.

بدا واضحاً من خلال موقفها منه بعد ظهر اليوم، وعلاقاتها المثيرة للقلق بشيرمان، أنها تخطت تلك المشاعر الطفولية وطوت صفحتها.

في مطلق الأحوال، إنه الوقت المناسب ليقول لها ما عنده: «هل من حاجة لأن أقول لك إن زواجنا سيبقى حبراً على ورق، وإنني لا أتوقع منك أن تشاطريني سريري؟ يمكنك أن تشاطريني حياتي ومنزلي على مدى ستين بكاملهما، لتتمكني من تحديد أولوياتك، واختيار طريق حياتك، فتتولي بعدها إدارة أموالك بشكل صحيح. ومن البديهي أن نبطل زواجنا لاحقاً».

قال لها ذلك بنبرة لطيفة وقد ظهرت في عينيه إمارات القلق. إذ لم تغفل عيناه عن رؤية ارتجاف يديها النحيلتين، مع أنها شبكتهما في محاولة منها لإخفاء اضطرابها، فضلاً عن شحوب وجهها الشديد. استطرد يقول بصوت رقيق: «وخلال فترة زواجنا، سأحميك من شيرمان وأمثاله الذين يتوددون إليك سعياً وراء مالك، فيستغلون صراحتك وكرمك، ويحولون حياتك إلى شقاء. ولا تنسي أن سر الإرث الذي ستحصلين عليه

قد فضح، وسترين الرجال يحومون حولك كما يحوم النحل حول الأزهار».

لم تعد رجلاها قادرتين على حملها وقد أحست بالدوار والغثيان لدى سماعها طلبه. لقد تحولت أحلامها الصبيانية بلمح البصر إلى كابوس! إلا أنها بذلت جهدها لتقول له بصوت مرتجف: «يا لها من طريقة مقززة لطلب يدي للزواج!».

أبت زوي أن تبكي، فهي لم تسمح لنفسها يوماً بالبكاء! غير أن عينيها البائستين لم تذعنا لإرادتها، فأغرقتا خديها بدموع حارقة مخزية. دموع مسحتها بسخط وهي تقول له: «أتريد القول إنه من الصعب أن يغرم أحد بي، لأن الجميع يسعى وراء مالي؟».

أخذ صوتها يهدد بالاختناق، وهي تتابع قائلة: «أشكرك لأنك رفعت من معنوياتي!».

قالت ذلك وتوجهت نحو الباب، إلاّ أنها لم تكد تخطو خطوتين نحو الباب، حتى وجدت نفسها بين ذراعيه ودموعها الغزيرة تبلل قميصه.

بقي خافيير ممسكاً بها لبعض دقائق من دون أن ينبس بكلمة. شعر بالغضب من نفسه لأنه تسبب بجرح مشاعرها، وراح ضميره يؤنبه بشدة وهو يشعر بقامتها الرشيقة ترتجف بين يديه من فرط انتحابها.

- لا تبكي!

قال لها ذلك بصوت هامس محاولاً أن يخفف عنها، وقد عبقت في أنفه رائحة أزهار الصيف التي تفوح من شعرها ثم عاد يقول: «أيعقل ألا يقع أحد في حبك لشخصك؟ فأنت جميلة، ذكية، ممتلئة نشاطاً وحيوية».

توقفت عن النحيب، واستكان جسدها المرتجف بين أحضانه. يا للفتاة المسكينة! راح يربت على كتفها برقة.

ولم يشعر خافيير بيده وهي تتسلل بخفة إلى خصرها لتستقر هناك. إلا

أنه شعر فجأة بملمس بشرتها الناعمة، الدافئة. واعترف قائلاً: «أعرف أنني بدوت قاسياً عليك. ولكنني شعرت بالغضب وأنا أراك تدمرين حياتك من أجل شخص مثل شيرمان. إنك تستحقين رجلاً أفضل منه وكلّ ما أردته هو حمايتك!».

رفعت زوي رأسها ببطء وهي تتنفس بصعوبة بالغة، بعد أن شعرت باضطراب في مشاعرها، وراح قلبها يتخبط بصورة عشوائية.

بدا صادقاً في كلامه حين قال لها إنها جميلة، ولم يخفّ عليه الجرح الذي سببه لها فأسرع يأخذها بين ذراعيه ليخفف عنها.

التقت عيناه بعينيها المبللتين بالدموع وقد تشابكت رموشهما السوداء اللامعة الرطبة، وانفرجت شفتاها المرتجفتان. أما زالت تشعر بالألم، ولا تقدّر نفسها حق قدرها؟

أنّب خافيير نفسه بشدة على ما فعله بها للحظات خلت، وأحس بموجة عاتية من الحنان تجتاحه. إن هذه الفتاة بحاجة إلى قلب محب ملؤه العطف، يوفر لها الدفء والحنان. إنها بحاجة إلى من يعانقها.

٢ ـ أريدك، ولكن...

بذلت زوي جهداً بالغاً لتضبط نفسها. شعرت أنها على وشك أن تنفجر من شدة الفرح، وأرادت أن ترفع ذراعيها نحو السماء، تعبيراً عن شعورها بالامتنان. وتخرق السحاب، صارخة بأعلى صوتها وهي تقفز من مكان إلى آخر.

ارتسمت على ثغرها ابتسامة عريضة مضحكة، لم تحاول كبتها. جالت عيناها المتلألئتان المفعمتان بالحب على طول الشرفة الفسيحة بحثاً عن عريسها. وإذا بها تراه وقد وقف يراقب باهتمام بالغ، والده وهو ينزل السلم متكئاً على عصاه، متوجهاً إلى المرجة التي وزعت عليها طاولات الطعام استعداداً لاستقبال الضيوف.

بدت قامته الرياضية، التي تفوق طولها الست أقدام، ممشوقة في البذلة الرسمية الرمادية اللون، فيما كان شعره الداكن يلمع تحت أشعة شمس تموز.

كم هو وسيم! وقفز قلبها من مكانه تحت سترة بذلتها القشدية اللون وهي تتأمل ملامحه الجذابة، بدءاً من أنفه الأرستقراطي، وصولاً إلى فمه الأنيق وخديه البارزين!

إنه الآن زوجها!

عقدت زوي العزم في سرها على أن تسقط من حساباتها المهلة التي حددها لزواجهما أو تلك الشروط التي أصر على ألا يتخطياها.

لم يكن يخطر في بال خافيير أنها ستحاول جاهدة أن تحمله على إعادة

النظر في ذلك السيناريو المنافي للعقل!

فبعد أن عانقها بشغف، وافقت على عرضه المخزي للزواج بها من دون تردد. صحيح أنه تراجع، بعدئذٍ، خطوتين إلى الخلف ودفعها بعيداً عنه برفق، لكن خلال تلك اللحظات الجميلة، تحول عناقهما إلى لهفة جامحة بدائية مدمرة. أحست زوي بجسده القوي يتصلب باستجابة رائعة لعناقهما، كأنه يحثها على تحويل زواجهما الصوري إلى زواج فعلي. زواج سعيد يثمر عدداً من الأولاد.

خلال الأسابيع الثلاثة التي تلت موافقتها على عرضه، الخالي من أي إطراء؛ وبعد أن قالت ببرودة مطلقة: سأوافق على الزواج بك شرط أن تدعني وشأني خلال الستين المقبلتين؛ أخذت تتحين الفرص لتحظى منه بعناق آخر، أكثر جموحاً وعمقاً؛ إلا أنها عادت وارتأت أن تتحلى بالصبر وتلعب لعبة الانتظار، كي لا تجعله يتراجع عن قراره، ويلوذ بالفرار إن أدرك حقيقة مشاعرها.

- تعالي وانضمي إلى ضيوفك يا عزيزتي. صحيح أن عددهم قليل، إلا أن الجميع ينتظر وصولك!

بدت إيزابيلا ماريا غاية في الأناقة وقد اختارت للمناسبة معطفاً حريرياً مطرزاً، ذا لون مائل إلى الخضرة، تعلوه قبعة كبيرة ملائمة.

دست المرأة يدها تحت مرفق زوي وهي تستطرد قائلة: «أشعر بسعادة عارمة لأن ابني أخذ بنصيحتي وتزوج. ولن أتذمر مطلقاً من مراسم الزفاف المدني البسيطة أو هذا الحفل الهادئ الأشبه بجنازة».

- أفهم قصدك جيداً.

كبتت زوي ضحكة مدوية كادت أن تفلت منها وهي تسير إلى جانب حماتها، وعيناها تومضان من تحت الخمار القشدي الصغير المتدلي من قبعتها، والمزدان ببراعم صفراء صغيرة.

جلست الجدة أليس ومدبرة منزلها العجوز إلى الطاولة تتململان

ضجراً، فبدتا أشبه بغرابين أسودين. كما زاد مظهر آل راماي، في ملابسهما القاتمة، من حدة سوادهما.

- إنها إرادة خافيير!

أقرت زوي بذلك والبهجة تشع من وجهها، ثم تابعت تقول: «أراد زفافاً بسيطاً يقتصر على أفراد العائلة وآل راماي. تعلمين جيداً أنه لا يحب أن يجرح مشاعرهما، وهو يعاملهما كفردين من العائلة وليس كخادمين عنده!».

- وهل كانت هذه رغبتك أيضاً؟

قلما يهم إيزابيلا ماريا أن يحضر آل راماي حفل زفاف ابنها، وتابعت تسألها: «لمَ لم تصري على إقامة حفل زفاف أسطوري ضخم، تبقى ذكراه عالقة في الأذهان لفترة طويلة؟».

وقبل أن تتاح الفرصة لزوي لتقول لها إنها على استعداد لتلبية رغباته كافة، حتى ولو صمم على أن يتزوجها في عربة للنفايات، واختار متسكعين ليشهدا على زواجهما، همست إيزابيلا ماريا في أذنها قائلة: «اسمعي نصيحتي يا ابنتي ولا تدعي خافيير يأمر وينهي على هواه، فهو يجيد ذلك. قد يبدو لك أحياناً بارداً جداً، إلا أن قلبه في غاية الطيبة. وأنت تتمتعين بجمال أخاذ، فاستخدمي النعم التي أغدقت الطبيعة بها عليك بحكمة، فيصبح كالخاتم في إصبعك».

لم تجد زوي نصيحة حماتها ضرورية، لا سيما أن أفكارها سلكت المنحى عينه، بعد أن سقط الإلهام عليها، يوم عانقها ذلك العناق المحموم.

بعد أن أشارت إيزابيلا ماريا إلى أنها كانت السبب وراء إقدام ابنها على الزواج، أرادت زوي أن تسألها المزيد من المعلومات عن هذه النصيحة، لكن الكلمات ماتت في حلقها وهي ترى خافيير يتوجه نحوهما.

وعلى الرغم من تململه بسبب تأخرهما، لم يعبر عن ذلك بصراحة.

بدت عيناه الضبابيتان غامضتين وصوته غاية في الرقة وهو يقول لهما: «إن الجميع في انتظاركما!».

ورماها بابتسامة ساحرة، فتسارعت دقات قلبها، واجتاحتها رغبة جامحة برسم خطوط وجهه الوسيم بأطراف أصابعها.

وعوضاً عن ذلك، دست يدها تحت ذراعه، تاركة لأصابعها الحرية المطلقة لتجس طريقها بحثاً عن دفئه الذكوري وجسده المشدود النابض بالرجولة، تحت قماش سترته الفاخر. تمايل جسدها الرشيق قرب جسده وهما ينزلان السلم معاً، فأشعلت هذه الحركة البسيطة مشاعرها، وزحف الاحمرار إلى خديها. لا أحد سواهما يعلم أن زواجهما مجرد حبر على ورق، وستخلو منه اللحظات الحميمة الدافئة.

ألن يشعر الجميع بالريبة إن تفادت العروس عريسها وكأنه وباء مميت؟ هذا ما فكرت به زوي في سرّها، إلاّ أن كياسته البالغة وهو يقودها إلى مقعدها قبالة جدتها، كانت خالية من أي عيب.

وضعت زوي باقة الزهور الصفراء والبيضاء على غطاء الطاولة الجديد، وقلبها يتخبط عشوائياً بين ضلوعها، كأنه طائر مسعور في قفص. وتساءلت إن كان خافيير يشاطرها تلك الإثارة التي أوهنت رجليها، وتركتها متقطعة الأنفاس. استرقت النظر إليه... لم تظهر عليه أي إشارات تدل على تأثره، فأحست زوي بسعادتها تتلاشى شيئاً فشيئاً. مدت يديها لتمسك بقرطي التوباز اللذين قدمهما لها يوم عيد ميلادها، وهي تذكر نفسها بأنها لا تزال في أول الطريق. بعد أن أجلس خافيير والدته قبالة والده، على الطاولة، أحنت أليس روثويل رأسها الأشيب وقالت: «لا أحبذ، عادة، زواج الفتاة في سن مبكرة. ولكن لا يسعني، في حالتك، إلا أن أهنئك. لاشك أن خافيير سيحسن معاملتك، ما يجعلني أطمئن إلى أنك بين أيدٍ أمينة. في الواقع، لاحظت تحسناً ملموساً

في تصرفاتك منذ المرة الأخيرة التي قابلتك فيها».

شعرت زوي وكأنها عادت طفلة من جديد. ذكر جدتها لليوم الذي سلمتها فيه إلى خافيير، والتغير الثوري الذي أدخلته على شكلها الخارجي، بالإضافة إلى الصدمة البالغة التي سببتها لجدتها أمامه في ذلك اليوم، ذلك كله حثها على تقديم الاعتذار لجميع الحاضرين، لما سببته لهم من مشاكل. غير أن لسانها انعقد عن الكلام وهي ترى خافيير يجلس مسترخياً في الكرسي المجاور لها.

انهمك الخدم بصب العصير في الأكواب وتوزيعها على الحاضرين. وبعد قليل، رفع خافيير كوبه عالياً، مبتسماً لها ابتسامة رائعة، كما هو متوقع من كل عريس يشرب نخب عروسه الجديدة. ولكن عينيه بدتا أشبه بكرتين من الثلج.

سرت قشعريرة على امتداد عمودها الفقري.. أتراها بالغت في تفاؤلها؟ شعرت زوي بالانزعاج بسبب استسلامها أمام أول عقبة تعترض طريقها، وراحت تلتهم الكافيار الفاخر، وتتبادل أطراف الحديث مع الموجودين، متظاهرة بالغبطة.

لم يكن الاستسلام من شيمها أبداً. صحيح أنها استعملت في الماضي قوة إرادتها بطريقة سلبية، ولكنها ستوجهها اليوم في اتجاه إيجابي علها تكسب احترام خافيير أو ربما.. حبه.

وبينما كانت تتناول الدجاج المتبل مع السلطة الخضراء، إذا بحيوان صغير كث الشعر، يزين عنقه شريط من الساتان الأبيض، متلائم مع المناسبة، يقفز إلى حضنها.

صرخت إيشيل قائلة: «لابد أن أحد الخدم قد أطلق سراحه. طلبت منهم ألا يفعلوا ذلك!».

- انزلي هذا الحيوان عن حضنك يا فتاة، فشكله مثير للقرف!

قالت الجدة أليس ذلك وهي ترمي إيشيل بنظرة استهجان فأسرعت

هذه الأخيرة تنهض من مكانها وقد بلغ الارتباك منها مبلغاً.

- ينبغي الحرص على ربطه بإحكام!

التفت خافيير نحو عروسه ورأى على وجهها إشراقة الفرح وهي تمسك بكلبها الصغير، مسرورة باهتمامه البالغ بها. فصرخ في وجه إيشيل قائلاً: «عودي إلى مكانك يا إيشيل. فبوزي هو مرافق زوجتي المخلص، وهو يستحق أن يشاطرها سعادتها».

ثم أخذ قطعة دجاج من طبقه وناولها للحيوان اللقيط. وكم كان ذهوله عظيماً حين وجده ينظر إليه بعينين تعدانه بالإخلاص المطلق، فبدا له فاتناً أكثر من ذي قبل.

مسح خافيير أصابعه بالمنديل الكتاني، وأحس بعدوى الابتسامة العريضة الساحرة، التي علت وجه زوي، تنتقل إليه. لقد أحسن صنيعاً بزواجه بها... والحق يقال إنها تعاملت معه بلطف وتفاهم، ووجدها سهلة العريكة. لطالما أدرك هذه الحقيقة عندما كانت صغيرة، إذ لم يكن إرضاؤها صعباً على الإطلاق. خلال السنتين المقبلتين، سيؤمن لها الارشاد، التشجيع اللازمين لتشق طريق مستقبلها بمنأى عن الطفيليين المتملقين، الطامعين بثروتها. هذا ما صمّم عليه خافيير بصدق.

بقيت زوي في حالة من الانبهار الشديد طوال حفل الزفاف. لقد دافع خافيير عنها وعن كلبها أمام جدتها أليس، قائلاً بالفم الملآن إنها زوجته. فأحست بالمشاعر الجياشة تتخبط في داخلها وهي تسمعه ينطق بتلك الكلمات الساحرة.

في تلك اللحظة، حمل إليها أحد الخدم باقة من الورود القرمزية والبرتقالية، معلناً في الوقت نفسه وصول السيارة التي ستقل السيدة روثويل ورفيقتها إلى المنزل. فاستفاقت زوي من أحلام اليقظة، على ابتسامة خافيير الفاتنة، لتدرك أن الوقائع كلها تشير إلى أنها أصبحت على بعد خطوتين من تحقيق هدفها السري.

أخذت زوي باقة الورد ووضعتها عند حافة الطاولة. لم تكن لديها أدنى فكرة عن مرسلها، وبدت لها مبتذلة بعض الشيء. دفعها الفضول إلى معرفة من أرسلها، فسحبت المغلف الصغير الموضوع في داخلها، وهي تشعر بوجود خافيير خلفها. ولم تكد تمضي ثوان حتى تمنت في سرها لو أنها لم تفعل. إذ طارت الورقة من بين يديها، وتوهج خداها غضباً، وأحست بالألم يعتصر فؤادها وهي ترى خافيير يلتقط الورقة ويقرؤها: «مبروك يا زوي، حظيت بعريس مغفل ثري. أعلم أنك تخليت عني لأنني لا أملك مالاً، ولكنني أتحلى بميزات أخرى كلانا يعرفها جيداً. حين تملين من العجوز، تعلمين جيداً أين يمكنك العثور عليّ. أولي».

سحق خافيير الرسالة المهينة بيده بوحشية، ورماها جانباً، ثم نظر إلى زوي نظرة مبهمة، قبل أن يهب لمساعدة الجدة أليس على توضيب حاجاتها استعداداً للانصراف. تقدمت العجوز من زوي وطبعت على خدها قبلة، هي الأولى منذ زمن بعيد جداً، ثم توجهت إلى الباب الأمامي للمنزل حيث كان السيارة في انتظارها.

وقفت زوي تتأمله بإمعان وهو يرافق الجدة أليس إلى الخارج، وقد شعرت بأنها منيت بهزيمة ساحقة. لا شك أن خافيير يخالها عديمة الأخلاق. وتمنت في سرها لو أنها لم تذعن لمشيئة كبريائها الغاضبة وتدعي أمامه رغبتها بالزواج بأولي. إذا ما وقعت عيناها على أوليفر شيرمان ثانية ستخنقه بيديها، فحقده الذي لا يعرف حدوداً دفعه إلى كتابة تلك الرسالة اللعينة.

كان خافيير محقاً، فشيرمان لم يطلب يدها للزواج إلا بدافع من جشعه. لعله ظنها طريدة سهلة، إلا أنه ظنه لم يكن في محله. صحيح أنها كانت تنفق أموالها يميناً وشمالاً، بهدف قضاء أوقات مسلية مع أصدقاء ظرفاء متملقين، تساعدها رفقتهم على التخفيف من شوقها المتزايد إلى خافيير، إلا أن ذلك لا يعني أنها مغفلة. وعندما فشلت خططه بالزواج

من فتاة ثرية، لجأ شيرمان إلى زرع الأذى.

- هل أنت بخير يا عزيزتي؟

أيقظها سؤال ليونيل ماسترز الجالس قربها، متكئاً على عصاه بيد، وممسكاً يد زوجته باليد الأخرى، من شرودها، وأكمل قائلاً: «تبدين شاحبة!».

حاولت زوي أن تلملم شتات نفسها، فقالت: «أشعر بصداع أليم!».

كيف ستتمكن من إقناع خافيير بأن تلك الرسالة هي عبارة عن محاولة من شيرمان ليرد لها الصاع صاعين، بعد أن رفضت طلبه للزواج بها مرات عدة؟

لا شك أن التعقيدات الكريهة الناجمة عن هذا الموضوع، ستجعلها على بعد آلاف الأميال من كسب حبه... أو حتى احترامه.

قال لها ليونيل: «يجب أن يصطحبك خافيير في رحلة شهر عسل إلى أحد الجزر الاستوائية!».

وافقته إيزابيلا ماريا الرأي، قائلة: «عليه أن يدلل عروسه الجميلة اليافعة!».

شعرت زوي وكأنها طفلة سخيفة مدللة، تزوجت من رجل يكبرها سناً، ويكاد أن يكون في عمر والدها. لكن خافيير لا يكبرها إلا باثنتي عشرة سنة، وزوي ليست طفلة مدللة. شعرت أن ابتسامتها المتكلفة تؤلم وجهها، إلا أنها احتفظت بها قائلة: «كلانا سعيد هنا!».

قالت زوي لها ذلك في محاولة منها لصد كل تدخل من قبل والدي خافيير في حياتهما. فهل من داعٍ للذهاب في رحلة شهر عسل والعريس لا ينوي الاقتراب من عروسه؟

لا شك أن الآمال الكبيرة التي بنتها حول علاقتهما المستقبلية باتت

مجرد قصور من رمل، سحقتها العبارات المهينة التي كتبها أوليفر شيرمان!

لحقت زوي بوالدي زوجها وهما يصعدان السلم على مهل، تاركة الخدم يرفعون بقايا الطعام والطاولات، بعد أن انتهى الحفل ورحل الضيوف!

ولمحت بطرف عينها إيشيل تحمل باقة الورد اللعينة بعيداً، وتمنت في سرها أن ترميها في الزبالة!

قالت لها إيزابيلا ماريا: «سأصعد وليونيل لنرتاح قليلاً، ونتركك وخافيير لوحدكما. تأثرت كثيراً حين قادتنا إيشيل إلى الغرفتين اللتين كنا نشغلهما خلال إقامتنا هنا. حسبت أنك وخافيير ستشغلانهما!».

أجابتها زوي بحزم، متفادية التمادي في الحديث عن هذا الموضوع: «وقع اختياري على الجناح الأزرق عند مجيئي إلى هنا، ولا أظن أن خافيير قد استخدم الجناح الرئيسي قط. لقد اختار الغرفة التي تعلو مكتبه لأنها الأقرب إليه. إن سمحتما لي، سأذهب للبحث عنه!».

وأسرعت تدخل إلى المنزل لتبحث عنه في غرف الطابق السفلي، وصديقها بوزي يلحق بها من مكان إلى آخر، تتبعه القطة الفضولية هوني. غير أنها لم تجد له أثراً. أتراه اختار أن ينفرد بنفسه لينفس عن غضبه بعد أن تبين له أنه ارتبط بفتاة طائشة، لن تتوانى عن إقامة علاقة حب عابرة مع حبيبها، عندما تملّ من زوجها؟ لاشك أن ما جاء في رسالة أولي قد جرح كبرياءه. سرت قشعريرة في جسمها وقد تبين لها أن تصرفاتها لم توحِ له يوماً بأنها تحافظ على عذريتها حتى ليلة الزفاف، من أجل فارس أحلامها المنتظر.

صعدت زوي إلى غرفتها لتبدل بذلة الزفاف وهي توبخ نفسها بصمت، كوني واقعية! لن يتزعج خافيير مطلقاً من افتقارك إلى القيم الأخلاقية! هل نسيت أنه تزوجك بدافع الواجب فحسب؟

فبعد أن تعذر عليه إخضاعها لمشيئته، ارتأى أن يتزوج بها ليعيدها إلى

الطريق السليم. ولا شك أن تلك الرسالة اللعينة عززت الرأي الذي كونه مسبقاً عنها.

كانت السماء مظلمة حين ركن خافيير سيارته الجاغوار قرب سيارة اللوتس الرياضية الصفراء، وعلى فمه ابتسامة رضى. وضع سترة بذلته على كتفه، ووقف يتأمل حركات الخفاش البهلوانية.

لقد استعادت أفكاره هدوئها بعد الأحداث المثيرة التي شهدتها ساعات بعد الظهر.

كان حرياً بشيرمان أن يفكر ملياً قبل أن يحاول الاتصال بزوي ثانية!

قام خافيير بزيارة قصيرة لوالديّ أولي في القرية المجاورة، حيث التقى مونيكا شيرمان، وهي امرأة ضعيفة الشخصية، سريعة التأثر. بادرت المرأة إلى الاعتذار منه قائلة: «أخشى أن ابني ليس في المنزل حالياً. جاء أصدقاؤه منذ قليل وسمعتهم يتحدثون عن نادٍ افتتح مؤخراً خارج غلوسيستر، على طريق شيلتنهام. إنني واثقة من أنهم قرروا الذهاب إلى هناك، ما يعني أنه لن يعود قبل ساعات الصباح الأولى. هذا ما يفعله الصبية في العادة. هل تريد أن تترك له رسالة؟».

وجد خافيير النادي بسهولة. صحيح أنه افتتح حديثاً، ولكن المشهد هناك بدا مألوفاً: دخان كثيف، زحمة خانقة، حر شديد، موسيقى صاخبة خالية من أي معنى.

كان شيرمان متكئاً إلى عمود مطلي بطلاء ذهبي، يحمل كأساً بيده، وتتدلى سيجارة من طرف فمه. وهو يحاول إغواء فتاة ذات شعر أحمر وعينين ناعستين، ترتدي فستاناً أصفر اللون.

دنا خافيير منه وقال له بصوت أجش: «إياك أن تقترب من زوجتي ثانية. لو كنت مكانك لما أومأت لها برأسي إن قابلتها صدفة في الشارع».

انفجرت صاحبة الشعر الأحمر بالضحك، فاستقام شيرمان في وقفته، محاولاً أن يبدو أمامه أطول قامة، إلا أن خافيير ابتعد عنه بخطى موزونة

وقد تملكه النفور. ولكنه ما لبث أن عاد أدراجه وقد سمع الشاب يقول له بوقاحة: «إن أنجبت منها طفلاً، أنصحك بإجراء فحص لجيناته للتأكد من أبوتك له، فزوي فتاة لعوب».

فلكمه خافيير لكمة قاضية، ووقف يتأمله بعينين باردتين وهو يقع أرضاً، ويلف ذراعيه حول رأسه خوفاً من تلقي لكمة أخرى. فيما راحت شفتاه ترتجفان، وكأنه على وشك أن ينفجر بالبكاء.

بذل خافيير جهداً بالغاً ليضبط أعصابه فلا يتخطى حدود السرعة، وهو يقود سيارته عائداً إلى واكهام لودج. كم تمنى أن يشفي غليله من ذلك السافل ويقضي عليه، لكن العنف لم يكن من شيمه. في الواقع، إنها المرة الأولى التي يقدم فيها على تصرف مماثل. وفي طريق عودته وقع في حيرة من أمره... فهو يجهل السبب الذي دفعه إلى لكم ذلك السافل بدلاً من الاكتفاء بإسكاته بطريقة حضارية. لاشك أنه أثار غضبه بكلامه التافه، ولا حاجة أبداً لمواجهة زوي بما قاله عنها.

قراره بالزواج بها، إلى أن تكتسب المزيد من النضج، كان الصواب بعينه، لاسيّما أن علاقة حيمة كانت تربطها بأولي. وإعلانها الصريح عن رغبتها بقبول طلبه للزواج بها هو خير دليل على ذلك.

ولكن ما سبب هذا الإحساس المفاجئ بالوحدة، وكأنه يبحث عن الشيء الوحيد القادر على ملء الفراغ في حياته؟ شيء غريب، لا يعرف ما هو، لكنه يعرف أنه يحتاج إليه بشدة.

تحول سخطه الشديد إلى لهفة جامحة، وأسرع ينضم إلى الجميع في الغرفة الزجاجية، فوجدهم جالسين حول طاولة بيضاء، تعود إلى العصر الفيكتوري، وضعت عليها مجموعة متنوعة من الأطباق الشهية!

وقف خافير في الظل، تحت المدخل العريض الذي تعلوه قنطرة وقد تقطعت أنفاسه.

لاحظ أن زوي بدلت ملابسها وارتدت ثوباً طويلاً عاجي اللون،

يبرز معالم جسدها النحيل وساقيها الرشيقتين.

كان نور الشمعدان الكهرماني الموضوع إلى جانبها ينعكس على ملامح وجهها الجميلة مضفياً على شعرها مظهراً براقاً.

أحس بنيران الغضب تتأجج من جديد في أحشائه وهو يتخيل ذلك الحثالة يعاملها بخشونة، ويقيم معها علاقة حميمة.

أثار شيرمان قلقه بقوله إنه لم يكن الرجل الأول في حياتها. كم رجلاً عرفت على مر سنوات عمرها؟ أتراها مدمنة على إقامة مثل هذه العلاقات؟

مرت في ذهنه ذكرى تجاوبها الجامح مع عناقه، الذي كان في بادئ الأمر تعبيراً عن رغبته بالتخفيف عنها، وتحول في ما بعد إلى شيء مختلف كلياً.

عادت المشاعر الجياشة تتخبط في داخله، وقد التفتت زوي نحوه، كأنها شعرت بتوتره، فأشعلت ابتسامتها المشرقة نيران اللهفة في عروقه.

عض خافيير على شفته وهو يرى ذلك البريق الرائع في عينيها العسليتين. أخذ نفساً عميقاً... إنه يريدها بكل جوارحه... إنها زوجته، وله الحق بمطارحتها الغرام.

سأله والده وقد ظهر القلق على وجهه: «أين كنت؟».

أمّا والدته فهبّت تقول له مؤنبة: «لقد أهملت عروسك!».

- كنت مضطراً إلى معالجة مسألة مهمة، وسأعوض على عروسي إهمالي لها.

أمسك بمعصمها، وساعدها على النهوض من مكانها، فعبقت رائحة عطرها المثير في أنفه وألهبت حواسه.

دنت زوي منه بخفة، لتقلص المسافة التي تفصل بينهما. فلامس جسدها الفاتن جسده ملامسة جعلت النار تسري في شرايينه.

إنه الشوق المحموم، وكلاهما يعرف ذلك. شوق بدا واضحاً في بريق عينيها العسليتين وتسارع نبضها. علا الاحمرار خديها، وتقطعت أنفاسها، كما شعرت بالارتعاش في كل خلية من خلايا جسمها.

حملها خافيير بين ذراعيه وتوجه بها نحو الباب قائلاً: «أرجو منكما أن تعذرانا. علي أن أسوي بعض الأمور مع زوجتي».

٣ ـ أمل يخبو، ونار تشتعل

لم تطأ قدما خافيير أرض الجناح الأزرق منذ أن وقع اختيار زوي عليه، عند مجيئها للعيش في واكهام لودج.

كان المصباحان الموضوعان فوق المنضدتين يلقيان بظلالهما في المكان، ولم يرَ أثراً لملابس منثورة هنا وهناك أو صوراً لنجوم الغناء معلقة على الجدران كما كان يتوقع. كان المكان مرتباً ذا طابع أنثوي، يغلب عليه اللون الأزرق السديمي، وفي وسط الغرفة هناك سرير نحاسي مزخرف فرش عليه غطاء ذو ألوان عادية.

أخذ خافيير نفساً عميقاً وهو يستحضر في ذهنه صورتها فوق ذلك السرير العريض.

لم يكن لديه أدنى شك في استعدادها الكامل للتجاوب معه. فما إن حملها بين ذراعيه حتى أسرعت تحيط عنقه بيديها، وتدفن رأسها في كتفه، وقد انصهر جسدها بجسده وهو يصعد بها السلم. كان يشعر بدقات قلبها العشوائية تحت راحة يده اليسرى، ودفء جسمها تحت راحة يده اليمنى.

وإذ مال خافيير إلى الخلف ليغلق الباب وراءه، رفعت زوي رأسها قليلاً، فلامس شعرها الحريري المعطر خده الأملس... فأحسّ بتقلص في معدته وأغمض عينيه ليقاوم رغبته البدائية بأن يجعلها امرأته بكل ما للكلمة من معنى ويمسح من رأسها ذكرى كل الذين عرفتهم قبله...

تسللت نظراته عبر الباب المفتوح إلى غرفة الجلوس الصغيرة، فصعق

لرؤية باقة الورد اللعينة موضوعة على طاولة صغيرة فيها. وشعر خافيير بالاشمئزاز من نفسه، وأدرك أن تصرفاته وأفكاره جعلت منه رجلاً شبيهاً بشيرمان. رجل جشع يسعى إلى تحقيق مراده مهما كانت العواقب.

صحيح أن زوي تلعب أمامه دور المرأة الراشدة، إلا أن الطفلة الطائشة لا زالت ترقد في أعماقها.

وضعها على الأرض بخفة، وأسرع يبتعد عنها، مؤنباً نفسه بشدة لأنه سمح لتلك الرغبة الحيوانية بالسيطرة عليه والتحكم بتصرفاته.

إنها مجرد فتاة يافعة، أعربت عن موافقتها على الزواج به على الرغم من طريقته الفظة المهينة في طلب يدها، من دون أن تحاول مناقشته كامرأة واعية، أو تحديد شروط معينة تصر على أن يلتزم بها.

لاشك أن فكرة الزواج راقت لها، ووجدت فيها تجربة غريبة لم تسبر أغوارها بعد.

أيعقل أن يفقد السيطرة على نفسه ويستسلم لغرائزه، محولاً زواجهما الصوري إلى زواج حقيقي؟ هذا محال! لابد أنه كان يهذي!

اجتاز خافيير السرير الذي حرك فيه للحظات قليلة خلت مشاعر حسية دفينة، وتوجه نحو غرفة الجلوس التي كانت تضم أريكة من المخمل الأزرق الداكن وطاولة رخامية صغيرة، وضعت عليها باقة شيرمان اللعينة.

أتراها حرصت على ترتيب الأزهار بنفسها، ووضعها في إناءٍ من الكريستال، فيما كان شريط ذكرياتها الحميمة يمر في ذهنها؟ أتراها وجدت في العلاقات العابرة تعويضاً عن سنوات طويلة حرمت خلالها من الحب؟

وتذكر في تلك اللحظات سهام الشوق المحموم التي أصابتهما، حين التقت عيناهما، منذ قليل، في الغرفة الزجاجية، فوجد فيها رداً على تساؤلاته.

وقفت زوي في مكانها تتأمل خافيير وهو يلتقط الأزهار الفاقعة الألوان، التي رتبتها إيشيل في المزهرية، ويرميها من النافذة المفتوحة على مصراعيها، فأحست بالنبذ يثقل كتفيها النحيلتين...

كانت واثقة كل الثقة من أنه يريدها بكل جوارحه. ولم تخلُ الهالة التي أحاطت بهما وهو يحملها ويصعد بها السلم من الإثارة المتقدة.

فتمنت في قرارة نفسها أن يتحلى بالفطنة اللازمة ليدرك أن رسالة أوليفر هي مجرد محاولة دنيئة، من رجل يتآكله الحقد، لزرع الفوضى والأذى.

ولكن ما إن وقعت عيناه على تلك الباقة الكريهة حتى أبعدها عنه وكأنها شيء ملوث.

التفت خافيير نحوها، وقد خلت قسمات وجهه من أي تعبير. وخيل إليها أن الطبع الإسباني الحاد الذي دفعه إلى رمي باقة الأزهار من النافذة، قد اختفى. فهز كتفيه بلا مبالاة وقال لها: «كانت رائحة الزنبق قوية، ولم أجد أمامي حلاً أفضل من رميها من النافذة، لاسيّما أنني سأنام على الأريكة، لكنني أعتذر إن كنت قد جرحت مشاعرك!».

تقلصت عضلات معدتها، وتحولت قسمات وجهها إلى لوح من زجاج.

كيف خيل إليه أنها غاضبة منه لأنه رمى أزهار أولي من النافذة؟

لم ترَ جدوى من إضاعة وقتها في التعليق على الموضوع، وسألته: «لِمَ لا تنام في غرفتك؟ لا أظن أن هذه الأريكة مريحة».

عليها أن تتصرف وكأنها لا تتوقع منه أبداً أن يشاطرها سريرها في ليلة زفافها. عليها أن تتظاهر بأنها لم تكن ترجو ذلك من كل قلبها.

حاولت أن تبتسم ولكنها لم تفلح...

بدأ خافيير يفك أزرار قميصه، فجحظت عيناها وهي تقاوم دموعها.

- غالباً ما تستيقظ والدتي باكراً.

أبلغها ذلك بنبرة لم تخلُ من الابتذال، قبل أن يتابع قائلاً: «أمي امرأة عنيدة للغاية، وستكتشفين مدى عنادها حين تتعرفين إليها عن كثب. وجلُّ ما تتمناه في هذه الحياة هو أن ينعم الله عليها بالكثير من الأحفاد. فإن علمت أننا لا نتشاطر الغرفة عينها، سيملأ صراخها الغاضب المدوي المكان. وأخال أن تلك المسرحية التي قمنا بها أمامها منذ قليل، قد أراحت بالها بعض الشيء!».

علق خافيير قميصه على ظهر الأريكة، فأحست زوي بجفاف في حلقها بعد أن وجدت نفسها أمام تلك القامة النابضة بالرجولة والقوة، التي لفحتها شمس الصيف الحارقة، ما أضفى على عضلاته المصقولة لوناً برونزياً جميلاً!

كم أغواها مظهره المثير لترتمي بين ذراعيه... وكم بذلت من جهد لتقاوم إغراءاته الملحة بعنادٍ!

إلا أنها تعلم أنها ما إن تقترب خطوة واحدة منه حتى يلوذ بالفرار. فأحلامها الوردية حول الحياة المثيرة التي تنتظرها إلى جانبه، تحولت إلى سراب. وما لهفته وشوقه إليها منذ لحظات سوى تمثيلية سخيفة ابتكرها ليخفي حقيقة زواجهما أمام والديه.

عليها أن تحرص على إخفاء مشاعرها عنه، وإيجاد دور ملائم لها تلعبه أمامه وتلتزم به. فالفرصة التي أملت أن تحصل عليها من هذا الزواج الزائف تبخرت بأسرع مما تصورت.

أشاحت بنظرها بعيداً عنه، وأرغمت رجليها الواهنتين على حملها نحو خزانة الثياب.

منذ أن رأته يرمي أزهار شيرمان من النافذة والحزن لا يفارق وجهها.

أتراها أدمنت حياة اللهو إلى حد يجعلها تذعن لرغبات شيرمان

فتتسلل من المنزل وتذهب بحثاً عما ستفتقر إليه في زواجها؟

أتراها امرأة فاسقة حقاً؟ عليه أن يعرف حقيقة أمرها. سألها بنبرة صوت متشنجة: «هل طارحت شيرمان الغرام؟ وهل تنوين تلبية دعوته؟».

وقف ينتظر الرد وهو يتأمل تصلب كتفيها الجلي.

كان وقع الصدمة قوياً عليها ما جعلها تتسمّر في مكانها، وانعقد لسانها عن الكلام. ماذا تراه يظنها؟ بدا واضحاً أنه صدق كلام أولي من دون أي مراعاة لمشاعرها.

التقطت زوي من الدرج قميص نوم قطنية فضفاضة، اعتادت أن ترتديها أثناء النوم، ثم التفتت نحوه وقلبها يتمزق من شدة الألم.

أرادت أن تركله وتصرخ في وجهه، وتخدشه، إلا أنها لم تجز لنفسها هذه الرفاهية.

أجابته بنبرة فظة والشرر يتطاير من عينيها: «لا أظن أن الأمر يعنيك. هل سألتك يوماً إذا طارحت غليندا وصوفي أو سواهما الغرام؟».

أحست زوي بالغثيان وهي تتذكر غيرتها القاتلة من أولئك النسوة اللواتي شاطرنه سريره لفترة من الزمن!

لم تشأ أن تدعه يرى الألم في عينيها، فدخلت إلى الحمام وأقفلت الباب خلفها.

عقد خافيير حاجبيه، وهو يتأملها تنسحب من الغرفة، وثوبها الحريري ملتصق بجسدها الفاتن. كيف تسمح لنفسها بانتقاد أسلوب حياته، في الوقت الذي تعيش هي حياة مستهترة كما هو واضح؟

أقر خافيير في سره بأن جوابها ضرب على وتر حساس لديه. أليس صحيحاً أنه أغرى صديقاته ليرافقنّها خلال الرحلات التي وعدها بها؟

لم تكن حياته خير مثال تقتدي به! علاوة على ذلك، انغمس خافير في شهواته لسنوات طوال، غير أن تلك العلاقات العابرة ما لبثت أن أصبحت تافهة في نظره، فقطع كل صلة له بالنساء على مدى سنة بكاملها. لكن، لم طرأت هذه الأفكار الغريبة التي لا تمت إلى موضوعهما بصلة على رأسه في تلك اللحظة؟ ما يهمه الآن هو الأسلوب الذي اتبعته لتتفادى الرد على سؤاله... أسلوب حمل بين ثناياه رداً وافياً على تساؤلاته.

وقف أمام النافذة يتأمل ظلمة الليل منتظراً خروجها من الحمام. عليه أن يبذل قصارى جهده لإعادتها إلى رشدها كي لا تدمر حياتها. وعليه أن يبدأ العمل على ذلك من صباح الغد.

جافاه النوم، فنزل إلى غرفة المكتب التي وضبها بنفسه في واكهام لودج، وأمضى معظم ساعات الليل منكباً على العمل...

تسلل نور الصباح عبر النوافذ المفتوحة وفاحت رائحة القهوة الزكية من المطبخ، فأقفل جهاز الكومبيوتر ونهض من مكانه ليتأمل، عبر النافذة، المرجة الخضراء المغمورة بأشعة الشمس. وإذا بقلبه يقفز من مكانه وقد وقعت عيناه على زوي تلعب بالطابة مع بوزي.

كانت تضحك وتلهو تحت أشعة شمس الصباح الممتعة، وشعرها الطويل منسدل على كتفيها كأنه شلال من الحرير اللامع.

كانت حافية القدمين، ترتدي سروالاً قصيراً جداً، تعلوه قميص قطنية فضفاضة.

بدت مفعمة بالنشاط، وأشبه بحيوان صغير استعاد قوته بعد ساعات طويلة من النوم العميق. إلا أنها تعي جيداً أنها باتت امرأة، تنبض بالأنوثة... أنوثة هي مصدر فخرها واعتزازها.

دس خافير يديه في جيبي سرواله وهو يهمهم استهجاناً. من هو الرجل الذي يرضى بالارتباط بفتاة مماثلة؟

جاءه الرد وهو يراها تحمل الكلب الصغير بين ذراعيها، وتدفن وجهها في شعره الكث؛ إنه الرجل الذي يهتم لأمرها... والذي اهتم لأمرها دوماً.

توتر فكّه، فأسرع يغادر غرفة المكتب ليستحم ويحلق ذقنه ويبدل ملابسه.

لم ير في مظهر زوي التي دخلت إلى غرفة الطعام بعد ساعة تقريباً، ما يذكره بتلك الفتاة التي كانت تلهو عند الصباح مع كلبها، فقد اختارت للفطور الريفي برفقة ذوي زوجها فستاناً قطنياً تبني اللون، دون أكمام. ينم عن ذوق وبساطة في آن معاً. أما شعرها الناعم فعقصته عند مؤخرة رأسها ما أبرز قسمات وجهها الجميلة.

أحس خافير بضيق في صدره وهو يرى فستانها يرتفع إلى فوق ركبتها عند جلوسها إلى الطاولة. بدت غاية في الأناقة والهدوء والاتزان!

إلا أن الحيوية الصارخة المنبعثة منها راحت تناديه بأعلى صوتها، وعبثاً حاول أن يصم أذنيه عنها. لم يشأ أن يحدق بها ليرى تقوس فمها الجميل وهي تشرب العصير، إلا أنه لم يقوَ على إبعاد نظره عنها. راحت عيناها العسليتان تتنقلان بجرأة من والده إلى والدته وهي تتناول فطورها وتتبادل معهما أطراف الحديث. وتمنى في سره أن ترمقه ولو بنظرة واحدة، إلا أنها لم تفعل، فلعن نفسه بصمت على غبائه وعجزه عن السيطرة على نفسه، مقارنة بهدوء تلك المرأة الفاتنة، الساحرة، الجالسة قبالته.

تمكنت زوي من رسم ابتسامة مشرقة على ثغرها حين سألتها والدته، بمكر، عن ليلتها. توقع أن تعلو حمرة الغضب خديها أو أن تزم شفتيها استياء، وهي تتذكر ما حصل بينهما. لكنه أقر في سرّه والمشاعر المتضاربة تتخبط في داخله بأن زوجته بدأت تفاجئه.

- يؤسفني أن أبلغكما أننا سنرحل اليوم!

تظاهرت إيزابيلا ماريا بالاستياء، إلا أن عينيها كانتا تتلألأن فرحاً وهي تلتفت نحو ابنها مضيفة:

- ولكنني لا أخالكما ستحزنان كثيراً حين تقفان عند باب المنزل الأمامي، وتلوحان لنا مودعين!

ثم وضعت منديلها على الطاولة تستعد للنهوض من مكانها، وهي تقول: «عدني بأن تجلب زوي لزيارتنا في منزلنا الصيفي. أظنها ستستمتع كثيراً بالمناظر الخلابة والهواء النقي. إنني واثقة من أن أعمالك لن تتدهور إن توقفت لبعض الوقت عن حشر أنفك في كل شاردة وواردة».

استقام خافيير في كرسيه، وشبك يديه خلف رأسه وهو يبتسم لها متظاهراً بالاسترخاء، في وقت كانت الدماء تجري حارة في عروقه. فأجابها متشدقاً: «تعلمين جيداً أنني صاحب القرار النهائي بشأن الإجازات!».

ولم تكن الخطط التي أعدها لزوي تشمل التسكع نهاراً والسهر ليلاً...

لم تكد تمضي ساعتان من الوقت حتى وقف العروسان متلاصقين، عند باب المنزل الأمامي يودعان والدي خافيير...

وما إن اختفت السيارة التي استأجرها ليونيل للرحلة خلف المنعطف حتى أدركت زوي ما الذي سيحصل. إذ أسرع خافيير يبتعد عنها بفظاظة، وينزل ذراعه عن كتفيها، فأحست بموجة من الوحدة تجرفها، وترميها على شاطئ الحزن.

على الرغم من الود الكاذب الذي تظاهرا به أمام والدي خافيير، كي لا يثيرا ارتيابهما، أرادت زوي أن تدخر كل لحظة، كل ابتسامة، كل لمسة، وكل كلمة رقيقة. فجفاؤه يضنيها. إلا أنها أبت أن تظهر له ذلك.

كان خافيير يخالها فتاة متمردة، لا يمكن السيطرة عليها. ولم يكن أمامها سوى أن تظهر أمامه بمظهر الفتاة الراشدة التي تستحق احترامه،

فتكيف تصرفاتها بطريقة تتعارض مع التصرفات التي اعتاد عليها من تلك المراهقة المشاكسة. رمته بنظرة عجلى ثم ابتسمت له ابتسامة هادئة وقالت له هامسة: «يؤسفني رحيل والديك، إنهما في غاية الطيبة. غير أن رحيلهما سيوفر عليك عناء التمثيل طوال النهار. أظن أن الأمر مرهق بالنسبة إليك».

الغريب في الأمر، هو أن خافيير لم يكن منزعجاً من الوضع. ضاقت عيناه وهو يتأمل صورتها الجانبية المبهجة للعين.

أومأت له برأسها وعلى ثغرها ابتسامة خجولة، وقالت: «الطقس جميل اليوم! سأقوم بنزهة قصيرة!».

أتراها ذاهبة لزيارة شيرمان؟ اتسعت عينا خافيير؛ لا مجال لأن يسمح لها بذلك على الإطلاق! ألقى بيده القوية على كتفها قبل أن تتمكن من التحرك خطوة واحدة إلى الأمام، وقال لها بحزم: «عليك أن توضبي حقائبك، أريد الذهاب إلى لندن قبل الغداء!».

نظرت إليه زوي بعينين مذعورتين... فالمدينة بعيدة، هواؤها ملوث وطرقاتها مزدحمة بالسيارات والسياح و..

اعترضت قائلة: «بوزي! لا أستطيع أن أتركه. سيشتاق إليّ حتماً... كان تائهاً حين عثرت عليه... ولا أريده أن يمر بالمحنة عينها من جديد».

علاوة على تعلقها الشديد بالكلب الصغير وحبها للريف ومساحاته الشاسعة، كانت زوي تشعر بالارتياح في هذا المنزل وتستطيع العيش فيه حتى لو كانت وحيدة. وهكذا، تستطيع تحمّل صعوبات زواجها هذا. يمكنها أن تتعلم القيادة على يد شخص محترف، لتمضية الوقت، وأن تختار مهنة تتلاءم مع وضعها الجديد كزوجة خافيير... وربما أم أولاده.

سألته بنبرة مفعمة باليأس: «لِمَ لا يمكننا البقاء هنا؟».

أتراها تبحث عن أعذار واهية لتبقى على مسافة قريبة من عشيقها؟

- سيكون الكلب بخير!

حاول ألا يفقد السيطرة على أعصابه وقد أخذت نيران الغيرة تتأجج في أحشائه. لم يشعر بالغيرة يوماً، ولن يفعل الآن.

- هل تخشين أن تتركه إيثيل دون طعام؟ أم تخشين أن يركله جو برجله؟

على الرغم من تهكمه اللاذع أقرت زوي في سرها بأنه محق؟ فجو وإيثيل يحبان الكلب حباً شديداً. غير أنها لم تجد حجة أفضل تتذرع بها.

- ولا تنسي أنه ينبغي علي أن أعمل لكسب رزقي؟

هل يسخر منها؟ أيخالها إنسانة طفيلية لا يهمها سوى إنفاق الثروة التي عمل والدها جاهداً لجمعها؟ أحست بقشعريرة تسري على طول عمودها الفقري، وعلا الاحمرار خديها. حسناً، عليها أن تثبت له العكس!

وسمعته يضيف بنبرة واضحة: «يمكنني أن أدير أعمالي من هنا! لكن لا تنسي أن آل راماي يعملان عند والدي منذ زمن بعيد، ويدينان لهما بالإخلاص. وأظنك لاحظت جيداً أنهما يعاملانهما كفردين من أفراد العائلة. ومن المؤكد أن والدتي ستتصل يومياً للاطمئنان على العروسين. فهل ستتمكن من إخفاء حقيقة إقامتنا في غرفتين منفصلتين طويلاً؟ بالإضافة إلى ذلك فإن النوم على الأريكة متعب حقاً!».

زمت زوي شفتيها وأخفضت رموشها. بدا شعرها ذهبي اللون تحت أشعة الشمس الساطعة، وأحس خافيير بضيق في حلقه فأسرع يقول لها بصوت متهدج: «ابدأي بتوضيب حقائبك، وأعدك بأن أجلبك لزيارة حيواناتك العزيزة على قلبك خلال عطلة نهاية الأسبوع. يمكنني أن أتقبل فكرة النوم على الأريكة مرة في الأسبوع».

وسيحرص على ألا يدعها تقابل شيرمان أبداً..

بدا صوته أشبه بصوت رجل يلاطف فتاة صغيرة ويقدم لها التنازلات

شرط أن تحسن التصرف. ليتها صانت لسانها ولم تعترض على كلامه بحدة!

لملمت شتات نفسها بسرعة، وقالت له بنبرة هادئة وقد ظهر طيف ابتسامة على ثغرها: «لم أنظر إلى الموضوع من هذه الناحية. إنك محق، فإيثيل شديدة الملاحظة ولن نتمكن من خداعها بسهولة!».

وافتر ثغرها عن ابتسامة عريضة ،فيما ومضت عيناها بوميض غريب وهي تضيف: «سأذهب لأوضب حقائبي!».

لم تتغير شقة لندن كثيراً منذ تلك الليلة اليتيمة التي أمضتها فيها قبل سفرها مع خافيير إلى إسبانيا خلال عطلة عيد الفصح.

جالت زوي بعينيها الشديدتي التوق في المكان، تتأمل كل ركن فيه بإمعان.

أقلهما المصعد الحديث، الذي يعمل بواسطة بطاقة بلاستيكية مشفرة، إلى الردهة التي طليت جدرانها بطلاء أبيض ووضعت فيها أريكة أنيقة.

دخلا من الباب المصنوع من خشب الماهوغاني إلى غرفة جلوس فسيحة، تتميز بجدارها الزجاجي الكبير المطل على المدينة بأكملها... كانت الغرفة تضم قطعاً قليلة من الأثاث، إلاّ أنها قطع باهظة الثمن، عالية الطراز، وأنيقة.

ما إن وطأت قدماها السجادة الفاتحة اللون حتى أدركت أن المكان يحتاج إلى لمسة نسائية. وحدها الوسادات المزركشة واللوحات الزاهية الألوان خففت من حدة هذا الإطار القاسي.

هل سيصبح هذا المكان منزلها خلال الستين المقبلتين؟ إنه منزل بارد يتلاءم مع زواجها العقيم. أحست زوي بتقلص في معدتها، فراحت توبخ نفسها على جبنها. ألم يخطر في بالها أن الستين المقبلتين كفيلتين بجعله يقع في حبها؟

أخذت حقيبتها الصغيرة من يده وقالت له بصوت هادئ: «هل سأنام في الغرفة عينها التي شغلتها من قبل؟ ما زلت أذكر الطريق».

ورمته بنظرة عجلى، إذ إنها وجدت خطراً كبيراً في السماح لعينيها بالنظر إلى زوجها الوسيم بإمعان... فكلما نظرت إليه تسارعت دقات قلبها، وجف حلقها، وأطلّ شعاع الحب من عينيها اللتين غالباً ما تفصحان عن مكنونات قلبها.

ارتكبت في الماضي خطأً فادحاً بالإفصاح عن حبها له، حيث اعتبره خافيير مجرد افتتان صبياني سيزول مع مرور الزمن.

خطت زوي خطوتين إلى الأمام، ثم التفتت نحوه قائلة: «اسمع يا خافيير، أعرف جيداً سبب زواجك بي. أعرف جيداً أنك تريد أن تمنعني من أن أجعل نفسي سخرية أمام أشخاص لا يجدر بي معاشرتهم، وأنا أقدر جداً حسك بالواجب».

أتراه شاهد لمحة من الخبث في التواء الفم المثير بابتسامة ساخرة؟ إنها قادرة حقاً على لعب دور الساحرة الشريرة حين تريد ذلك.

- وافقت على الزواج بك لأتخلص من حياتي التافهة التي لا معنى لها...

لحسن الحظ، أن خديها لم يتوهجا وهي تسمع نفسها تكذب جهاراً، وتابعت تقول: «عرضت عليّ أن ترشدني إلى الطريق الصحيح، وأنا موافقة على ذلك. لكن علينا أن نناقش أولاً مكانتي في حياتك. وأفضل أن نفعل ذلك هذا المساء، إن لم تكن مرتبطاً بمواعيد أخرى!».

بدا التحدي جلياً في تينك العينين الجميلتين. أتراها تتحداه حقاً؟ أثارت تلك الفكرة اضطرابه.

أيعقل أن تقول له إن مكانها الطبيعي هو في سريره؟

وقف خافيير يتأمل جسدها الرشيق وهي تمشي متبخترة وتجتاز الباب

المؤدي إلى القسم الآخر من المنزل. أتراه يتحلى بالقوة الكافية لمقاومة سحرها؟

تقطعت أنفاسه، وقد ضاق ذرعاً بتصرفاتها المزعجة. فتارة يراها طفلة صغيرة تلهو وتلعب، ليتفاجأ بها، بعد حين، تصب جام غضبها عليه لأنه أبعدها عن حبيبها. وطوراً يجدها تتصرف كامرأة راشدة موزونة.

عليه أن يلحق بها في الحال، حتى لا يعطيها أدنى فرصة للتغلب عليه. فالموضوع الذي تود مناقشته لا يحتمل التأجيل. وإن أصرت على تحويل زواجهما الصوري إلى زواج فعلي، سيضرم النار فيها ويرمي مطفأة الحريق من النافذة.

دخل غرفتها من دون أن يقرع الباب، فوجد حقيبتها مفتوحة، وموضوعة على السرير. استقامت زوي في وقفتها وأبعدت بيديها خصلة حريرية تدلت على وجهها، ثم رمته بابتسامة رقيقة، تمنى في سره لو أنه يستطيع سحقها بفمه، وأجابته عن سؤاله قائلة: «أصبحت الآن زوجتك، فهل تتوقع مني أن أقوم بواجباتي الزوجية، من طبخ وكي وغسيل وسوى ذلك؟».

عاد خافيير إلى غرفة المكتب وأقفل الباب خلفه، محاولاً أن يتذكر رده على سؤالها... لعله أجابها بالنفي.

لكن، لمَ تراه يشعر بخيبة الأمل بعد سماعه جوابها المبتذل... جواب لم يكن يتوقع سماعه أبداً؟

٤ ـ حبر على ورق

ما إن دخلت زوي إلى الشقة الساكنة حتى رمت حقيبة يدها على طاولة صغيرة وخلعت حذاءها ذي الكعبين العاليين.

إنها ليلة جديدة تضاف إلى ليالي الوحدة الطويلة، حاملة معها المزيد من الكآبة.

يصادف، بعد شهر تقريباً، عيد زواجهما الأول. ارتسمت على ثغرها ابتسامة ساخرة، وهي تدرك تمام الإدراك أنهما لن يحتفلا به، لا سيما أن خافيير لا يخصص لها إلا جزءاً بسيطاً من وقته. وما الذي حققته حتى الآن؟ لا شيء على الإطلاق! والحق يقال أن زوي بدأت تفقد الأمل في أن يقع خافيير في حبها يوماً ما.

هزت كتفيها إحباطاً، وتوجهت نحو غرفتها بخطىً ثقيلة.

بذلت زوي جلَّ ما بوسعها لتغيّر صورتها وتبدو في عينيه امرأة مميزة، امرأة تستحق احترامه وإعجابه. امرأة يجدها جذابة، فيقع في غرامها في نهاية المطاف.

خلعت بذلتها الصفراء الباهتة، وأخذت حماماً سريعاً ثم ارتدت سروالاً قطنياً مريحاً تعلوه قميصاً خضراء داكنة، وأسرعت تغادر غرفتها، متفادية النظر في المرآة، كي لا تواجه إمارات الهزيمة البادية في عينيها.

كانت تشعر بالجوع، إلا أنها لم تتكبد عناء تحضير شيء لتأكله، وفضلت أن تشرب شيئاً منعشاً بعد أن تلقي نظرة سريعة على البريد الذي وصل خلال غيابها عن المنزل. وجدت بضع فواتير، ورسالة لخافيير

تحمل خطاً أنثوياً جميلاً، ومغلفاً لها. إنها بطاقة دعوة لحضور زفاف غي و جيني.

ظهرت عند طرف فمها ابتسامة ملتوية وقد تبين لها أن دعوتها أرسلت متأخرة، فحفل الزفاف سيقام خلال عطلة نهاية الأسبوع المقبلة.

كتب في بطاقة الدعوة، أن مراسم الزفاف ستتم في كنيسة البلدة، ويليها حفل عشاء راقص في فندق وايت بور.

يبدو أن غي و جيني قررا أخيراً أن يدخلا القفص الذهبي، ويتوجا علاقتهما العاصفة باحتفال ضخم، على خلاف حفل زفافها البسيط.

عليها أن تعتذر عن الحضور، فقد كان خافيير صريحاً جداً حين أعرب عن نفوره من أصدقائها الهمجيين.

وضعت بطاقة الدعوة فوق الرسائل المكدسة، وقررت أن تنتظر عودة زوجها. وما هي إلا لحظات، حتى رن جرس الهاتف، فيما كانت تخرج زجاجة العصير من الثلاجة.

لابد أنه خافيير!

راح قلبها المغفل يخفق بصورة عشوائية... اعتاد خافيير أن يتصل بها من غرفته في الفندق، في مثل هذه الساعة، كلما كان مسافراً في رحلة عمل.

تلك الرحلات الطويلة التي باتت كثيرة خلال الأشهر الثلاثة الماضية. أيريد الاطمئنان عليها؟ وماذا بعد؟ من المؤكد أنه لا يتحرق شوقاً لسماع صوتها.

- كيف كان نهارك؟

- لا بأس!

كان جوابها مألوفاً، تماماً مثل التقرير المقتضب الذي يتوقع أن يسمعه منها، كأنه والد حنون يتوق إلى الاستماع إلى إنجازات طفلته في المدرسة.

- اجتماع الثلاثاء المعتاد...!

وفى خافيير بوعده لها، وساعدها لتصبح عضواً في مجلس إدارة إحدى المؤسسات الخيرية التي تعنى بقضايا المشردين، فوجدت زوي في عملها متعة وثواباً.

لكن صوتها خلا من الحماسة وهي تقول له: «إننا نعمل على تنظيم حفل راقص لجمع التبرعات، في أواخر فصل الخريف. وعليك أن تقنع أصدقاءك الأثرياء بشراء الكثير من البطاقات، لأن ثمنها سيكون مرتفعاً جداً».

خلال الأشهر الأولى من زواجهما، حرص خافيير على تقديمها إلى أصدقائه الطموحين. فاصطحبها إلى حفلات عشاء مترفة، كثرت خلالها الثرثرات اللاذعة والملاحظات الغريبة، حول اختياره الزواج بفتاة صغيرة في السن، طمعاً بثروتها، على الرغم من الأموال الطائلة التي جمعها على مر السنين...

لم يتوانَ هؤلاء أبداً عن وضعها تحت المهجر، من دون رحمة أو شفقة. وتحملت زوي ذلك كله، بلا تأفف أو تذمر، إرضاء لخاطر خافيير فحسب.

- ظننت أنني سأتمكن من العودة سريعاً لنذهب معاً إلى واكهام صباح السبت.

حاولت زوي أن ترهف السمع لتفهم ما يقوله، إذ تعالت قربه ضحكة أنثوية رنانة. لم يكن لوحده.. أتراه في اجتماع عمل يناقش تطور العمل في موقع البناء؟ أم لعل صاحبة الضحكة الرنانة هي رفيقته الدائمة خلال أسفاره؟

أحست بنيران الغيرة تلتهمها...

- أخشى أنني لن أتمكن من مغادرة كان قبل أسبوع على الأقل، فالأعمال متراكمة هنا.

وتوقف قليلاً عن الكلام ثم عاد يطرح عليها سؤالاً تافهاً: «ما الذي ستفعلينه هذا المساء؟».

ابتلعت ريقها بصعوبة محاولة أن تكبح جماح غضبها. يقول إن الأعمال متراكمة في كان! ... يالله العار! فيما هو يقيم احتفالاً في جناحه في الفندق. كم هو بغيض! لا شك أنه التقى بشقراء مثيرة قادرة على إراحته بعد نهار طويل من العمل المضني!

كبتت زوي تعليقاتها الساخرة، وبدلاً من الاكتفاء بالحقيقة المملة، والقول له إنها ستكوي ثيابها وتقرأ كتاباً أو تشاهد التلفزيون، قررت أن تكذب عليه، فقالت: «سأقصد البلدة. أراك الأسبوع المقبل!».

أقفلت سماعة الهاتف، وأطلقت العنان لدموع كبتتها طويلاً. عليها أن تواجه الواقع الأليم... فالوقت حان لتنسى أحلامها الطفولية التي لن تتحقق أبداً، وتعود إلى أرض الواقع.

منذ أحد عشر شهراً وهي تلعب دور الزوجة الرقيقة الحلوة المعشر، التي لا تتذمر أبداً. كانت ترى نظراته تزداد برودة، وتشعر به يبتعد عنها أكثر فأكثر، ويوماً بعد يوم. ويتركها وحيدة، ليجوب أقطار العالم كله سعياً وراء أعماله التي لا تنتهي.

وعلى الرغم من شوقها الشديد إليه، أبت أن تستسلم للكآبة. فعضت على جرحها، وتمسكت جيداً بالنضوج الذي اكتسبته، فانغمست في الأعمال الخيرية، من دون أن تهمل زوجها مثقال ذرة إذ كانت تحرص على أن تعد له الطعام الشهي، كلما عاد إلى المنزل بعد رحلة طويلة، وتجلس معه فتسامره وتسرد على مسمعه الأحداث المثيرة التي حصلت معها. ولم تنس أن تراعي ذوقه في الملابس، وتشتري الأثواب الأنيقة المحتشمة التي يحبذ أن ترتديها.

«خافيير حبيب ينبض بالرجولة». لم تعد تذكر ما إذا كانت صوفي أم غليندا هي التي تباهت أمامها بذلك، خلال لعبها دور الحاضنة المرافقة

لها في رحلاتها. وعبثاً حاولت زوي يومها أن تصم أذنيها عن تلك الكلمات الجارحة كي لا تصاب بنوبة غيرة قاتلة.

أثناء حديثها معه على الهاتف، تناهى إلى مسمعها صوت امرأة تلته ضحكة رنانة. أتراه وجد امرأة جديدة تلبي حاجاته كافة؟ لعل ذلك يبرر غيابه المستمر عن المنزل في الوقت الذي تلازم فيه زوجته الخانعة، التقية، المحظر مسها، المنزل! ليس بعد الآن!

آن الوقت لتكسر الأغلال وتخفف عن نفسها الكثير من الحزن، مسلمة بأن مرادها بعيد المنال! لن ينظر خافير إليها أبداً كامرأة يستطيع الوقوع في حبها. ستبقى في نظره، دوماً، طفلة حكم عليه القدر بأن يعتني بها... طفلة عليه أن يتحمل مشاكستها إلى أن تستلم إرثها وتصبح قادرة على التصرف بحكمة!

ومضت عيناها بوميض التمرد، وأحست بنيران الغضب واليأس تستعر في أحشائها وهي تطلب رقم واكهام لودج: «مرحباً إيثيل. سآتي غداً إلى البلدة... كلا، لن يأتي خافير معي، إنه في فرنسا. تلقيت دعوة لحضور حفل زفاف نهار السبت. أتذكرين غي وجيني؟. أظن أنني سأمضي بضعة أيام في البلدة...».

ويستطيع خافير أن يفعل ما يحلو له، عند عودته إلى شقته الفارغة... أما هي، فلن تدع هذا الزواج الصوري يكبلها إلى الأبد!

قاربت الساعة منتصف الليل وحفل الزفاف لا يزال في أوجه، فالناس يرقصون فرحين على وقع الموسيقى الصاخبة، ويتمايلون فرحين تحت الأضواء الباهرة المتماوجة ما بين الأزرق والأرجواني. كان العروسان قد غادرا الفندق منذ بعض الوقت، ولحق بهما المدعوون المتقدمين قليلاً في السن، الذين اعتادوا على النوم باكراً، ولم يبقَ في المطعم إلا الشبان اليافعين. بدت جيني فاتنة في ثوبها الأبيض، وأحست زوي بالدموع تترقرق من عينيها وهي ترى الهيام بادٍ على وجه العروسين

وهما يتبادلان عهود الزواج!

ليت حفل زفافها البسيط كان مشابهاً لهذا الحفل الرائع!

ابتلعت ريقها لتخفف ألم الدموع التي سدت حلقها... لن تسمح لنفسها بالعودة إلى تلك الآمال الصبيانية التي بتتها يومها! آن الأوان للمضي قدماً في حياتها، وها هي الليلة تخطو الخطوة الأولى لتحقيق ذلك، ها هي قد جاءت إلى هنا وهي تقضي وقتاً ممتعاً... أليس كذلك؟

بعد انتهاء مراسم الزفاف في الكنيسة، صعدت زوي إلى إحدى غرف الفندق، واستبدلت بذلتها الصيفية، بثوب من الشيفون، قرمزي اللون، ذي قبة مفتوحة، وتنورة قصيرة واسعة، تتمايل معها أثناء الرقص...

بدت مسرورة للغاية برؤية أصدقائها القدامى بعد طول غياب!

ادعت زوي بأن قدمها تؤلمها، لتتخلص من الدفعة الأخيرة من الشبان الذين تهافتوا لمراقصتها. صحيح أنها شعرت بالسرور في هذه المناسبة لكن الوقت حان لتعود إلى واكهام، وتمضي الأيام القليلة القادمة في التفكير في مستقبلها والاهتمام بكلبها بوزي.

وضعت كوب الماء المثلج على إحدى الطاولات المحاذية لصالة الطعام، وإذا بأصابع قوية تطبق على معصمها.

- لِمَ تتجنبين التحدث إلي، يا زوي؟ هل خرجت من دون علم زوجك؟

أوليفر... كان ردها الإيجابي على السؤالين واضحاً للغاية، فلم تتكبد عناء الإجابة.

- دعني أذهب لو سمحت!

لكنه أبى الإصغاء لطلبها وشدها نحوه أكثر!

كان يتصبب عرقاً ورائحة كريهة تفوح منه...

مضت سنة كاملة على المرة الأخيرة التي قابلته فيها. ولاحظت زوي

أن ملامحه الطفولية الجميلة قد تلاشت، وازداد وزنه بشكل لافت.

عقدت الصدمة لسانها عن الكلام.

في مطلق الأحوال، لا فائدة ترجى من التشاجر معه بشأن تلك الرسالة التي دسها بين أزهاره الكريهة، إذ بدت لها تلك الحادثة وكأنها تعود إلى زمن مختلف.

- أليس لديك ما تقولينه لي؟ ألم تندمي يوماً على ما فاتك يوم هجرتني؟

- أبداً!

وكلما حاولت الإفلات منه، كلما ازدادت قبضته قوة، من دون أن يسترعي ما يجري بينهما انتباه أحد من الحاضرين. فالأنوار خافتة، والجميع مسترسل في الرقص على أنغام الموسيقى الهادئة.

- ما رأيك لو أريك ما فاتك؟

وشدها بعنف نحو صدره، فعبقت رائحته الكريهة في خياشيمها. لم تتسن الفرصة لركبتها لركله، إذ أفقدها توازنها ودفعها إلى الحائط بقوة.

فجأة، بلمح البصر، وجدت نفسها حرة من قبضة أوليفر، الذي قُذِف بعنف إلى الخلف ووقع فوق إحدى الطاولات...

راحت زوي تلهث عاجزة عن التقاط أنفاسها من شدة الخوف، وأحست بدوار عنيف أغشى عينيها. ما الذي تراه أمامها؟ أهو حارس يرتدي درعاً لماعاً أم خطر محدق؟

إنه خافير... بقامته الطويلة وجثته الضخمة...

تنفست الصعداء، وابتعدت عن الحائط، وهي تبلل شفتيها الجافتين بلسانها وتقول متلعثمة: «حسبتك لن تعود قبل الأسبوع المقبل!».

- هذا واضح!

بدا صوته أكثر جفافاً من هواء الصحراء... استعادت الموسيقى

صخبها، ورأت زوي أوليفر ينهض عن الأرض بسرعة ويلوذ بالفرار، بينما صرخ خافير في وجهها، وهو يومئ برأسه نحو الباب: «هيا بنا!».

توجهت زوي نحو الردهة الطويلة، وفستانها القصير يتمايل حول ساقيها الطويلتين... من دون أن تغفل عيناها عن نظراته المستمرة عليها.

لم تسر يوماً برؤية أحد إلى هذا الحد!

التفتت نحوه وقد استعاد وجهها الشاحب لونه الطبيعي، وقالت: «شكراً لك. سأذهب لأجلب أغراضي».

أحست بضيق في صدرها وبذلت جهداً بالغاً لتتفوه بتلك الكلمات البسيطة. راح جسدها يرتعش وهي تفتح باب المصعد لتتوجه إلى الغرفة التي بدلت فيها ملابسها بعد مراسم الزفاف. وسمعته يقول: «ليس الآن. أريدك أن تغادري هذا المكان على الفور!».

جاءت كلماته مدوية كالرصاص، وألسنة الغضب والعدائية تتطاير من عينيه. لم يسبق له أن ضرب امرأة من قبل، إلا أنه تمنى، في تلك اللحظة، أن يضعها على ركبتيه، ويضربها على مؤخرتها ضرباً مبرحاً. وحدها الكبرياء منعته من القيام بشيء مماثل. اكتفى بوضع يده على ظهرها، ومغادرة الفندق برفقتها.

كان السكون يسود المكان... سكون لم يجد سبيله إلى أفكاره المضطربة.

كم من الوقت مضى عليهما وهما متكئان إلى الحائط؟ متى كانا ينويان الفرار إلى مكان ناءٍ بعيداً عن الأعين الفضولية؟

فتح لها باب سيارة الجاغوار قائلاً: «اصعدي إلى السيارة!».

رفعت زوي رأسها نحوه، فوجدت قسمات وجهه مشدودة، وعينيه أشبه بكرتين من جليد. لم يظهر لها يوماً هذا الجانب الوحشي من شخصيته، فأحست بجفاف في حلقها. لم يكن فارساً مقداماً هب

لإنقاذها، بل غمراً عاد ليتقم! لفح هواء الليل البارد وجنتيها فأحست بقشعريرة تسري في جسمها. تذكرت زوي، في تلك اللحظة، أنه لم يعد يشكل جزءاً من حياتها، فاستجمعت شجاعتها وقالت له: «أتيت إلى هنا بسيارتي!».

كانت سيارة اللوتس مركونة قرب سيارته، ومن الصعب ألا يراها، وتابعت زوي تقول: «تركت المفاتيح في غرفة الفندق. سأعود لإحضارها وأسدد الفاتورة! لم يعد بوسعك أن تملي عليّ تصرفاتي... انتهت مسرحية زواجنا الهزلية الساخرة!».

تجاهل خافيير كلامها، وأجابها وصوته ينبض بالغضب: «من المؤسف أنكما لم تستخدما الغرفة التي حجزتها، بدلاً من مغازلة بعضكما أمام نصف سكان البلدة».

وأخذ نفساً عميقاً ثم قال لها بلهجة الآمر: «اصعدي!».

أدركت زوي أنها لن تتمكن من التحدث معه قبل أن يستعيد رباطة جأشه!

خيل إليها، للحظات خلت، أنه أسرع لإنقاذها من موقف مخيف ومغيض، بدافع من غيرته عليها. آه، كم هي مخطئة!

ألم تتعلم خلال الأشهر الماضية أن تكف عن طلب المستحيل؟ لابد أن غضبه ناجم عن خوفه من كلام الناس، وانتقادهم لتصرفاتها المشينة، التي جعلته في نظرهم زوجاً مغفلاً، لا يحسن الدفاع عن شرفه.

ارتمت في مقعدها من دون أن تتفوه بكلمة، والأفكار تتدافع في رأسها. أجفلت عندما صفق الباب خلفها بقوة، مثيراً غضبها من قدرته الفائقة على التأثير فيها.

سألته بنبرة ساخرة بعد أن جلس خلف المقود: «ما الذي دفعك إلى التخلي عن مباهج كان، والعودة إلى هنا؟».

أجابها بحدة وهو يدير المحرك: «عزمك على التسلل من المنزل خلسة».

لم يؤنبها ضميرها وهي تتذكر تلك الكذبة التي أطلقتها بدافع من تمردها، بل ضمت يديها إلى صدرها، وأجابته بنبرة هادئة: «أنت يحق لك القيام بما يحلو لك، والذهاب إلى حيث تشاء، والتسكع برفقة النساء، وتريدني أن أبقى سجينة تلك الشقة الموحشة؟».

نهرها مدمدماً: «كفي عن تصرفاتك الطفولية!».

- لم أعد طفلة!

قالت له ذلك وهي تصر على أسنانها، ثم أكملت تقول: «أصبحت سيدة نفسي. لعلك لم تلاحظ ذلك، ولكنني لم أعد طفلة، ولا أريدك أن تعاملني كطفلة».

لم تشأ أن ينتهي حديثهما بهذه الطريقة فيفقد خافيير صبره بسببها.

كانت تنوي أن تطلعه على قرارها بإنهاء زواجهما قبل المهلة المحددة، مؤكدة له أنه لا داعي للقلق بشأنها بعد الآن، فقد وجدت الطريق الصحيح بفضل توجيهاته وإرشاداته، غير أن وصوله المفاجئ وغير المتوقع جعلها تعدل عن ذلك.

لزمت زوي الصمت وهي تشعر بالتوتر المتفجر المنبعث منه يلامس عظامها، ويثير ارتعاشها. فعادت بالذاكرة إلى تلك الأوقات الجميلة التي أظهر خلالها خافيير صبراً لا حدود له.

بعد انتقالهما للعيش في لندن، تلقت زوي دروساً في قيادة السيارات على يد مدرسين ماهرين. وكان خافيير يصطحبها بعد الظهر، إلى المرآب المجاور، لتقوم ببعض التمرينات، من دون أن يتأفف أو يتذمر من أخطائها الكثيرة. ولم يمل من هذه التمرينات إلى أن أصبحت زوي متمرسة في القيادة. واحتفالاً بنجاحها في اختبار القيادة، من المرة الأولى، اشترى لها سيارة رصينة، تستعملها العجائز للذهاب إلى التسوق. سيارة لا تشبه البتة سيارتها اللوتس الرياضية.

اغرورقت عيناها بالدموع وهي تتذكر تلك الأوقات البريئة، التي أحيت في قلبها الأمل في أن يتحقق حلم حياتها، ويتحول زواجهما الصوري إلى زواج فعلي.

نزلت زوي من السيارة فور وصولهما إلى المنزل. ولكن رجليها الواهنتين لم تقويا على حملها، فاستندت إلى جانب السيارة، علها تستعيد شيئاً من قوتها، منتظرة أن يفتح لها خافيير الباب الأمامي. سرت رعشة في جسمها، وشعرت بالغضب؛ كيف يجرؤ على التفكير بأنها كانت عازمة على قضاء الليلة برفقة أوليفر شيرمان؟ لم يحاول أن يسمع رأيها في الموضوع، واكتفى بتصديق الأوهام التي حاكها ذهنه المضطرب، ما أكد لها أن رأيه بأخلاقها كان متدنياً للغاية.

هل يخالها امرأة فاسقة؟

رفعت رأسها عالياً ودخلت إلى المنزل من دون أن تلتفت نحوه. صعدت السلم وهي تعض على شفتيها كي لا تتفوه بأي كلمة للدفاع عن نفسها.

عليها أن تقول له صراحة إنها لم تعاشر أوليفر شيرمان أو أي رجل آخر سواه، وإنه هو الرجل الوحيد الذي لطالما تاقت إليه...

أما خافيير، فأخذ قلبه يتخبط بين ضلوعه، وعيناه تلاحقانها وهي تصعد السلم.

كان ثوبها القرمزي رائعاً للغاية، ويبرز مفاتن جسدها وجمال ساقيها.

أتراها اشترته خصيصاً من أجل موعدها مع شيرمان؟ كم مرة تقابلا أثناء غيابه؟

صر خافيير على أسنانه وقد قست خطوط فمه...

ليته لم يترك لها حرية التصرف! ها هو يجد نفسه، مرة أخرى، أمام مشكلة جديدة، ناجمة عن تهربه من مواجهتها!

لم يتهرب منها، هذه المرة، على أمل أن تنطفئ شعلة مشاعرها الجياشة، بل على أمل أن يتلاشى توقه الشديد إليها.

صعد خافيير السلالم بخطى سريعة! فلتذهب تصرفاته النبيلة إلى الجحيم!

كان الدم الإسباني الجاري في عروقه يلح عليه ليواجهها وينفس عن المشاعر المتأججة في أحشائه.

وجد غرفتها خالية إلا من رائحة عطرها المثير وخرير المياه الجارية في الحمام.

دس يديه في جيبي بنطلونه، وراح يذرع أرض الغرفة جيئة وذهاباً. وكأنما النمر الراقد في داخله يحاول أن يمزق صدره بمخالبه ليشق طريقه إلى النور...

منذ أن أعلنت له عن رغبتها بالذهاب إلى البلدة، دق ناقوس الخطر في رأسه. فالهى الاجتماعات التي كان من المفترض به عقدها على مدى أربعة أيام، في يومين، واستقل أول طائرة عائدة إلى لندن.

انتظرها طويلاً في الشقة، إلا أنه لم يجد لسيارتها أثراً في المرآب السفلي، ورأى في بطاقة الدعوة الدليل الأكيد على مكان وجودها.

كان حري به أن يدرك أن تلك الشخصية الرقيقة المتملقة مجرد شخصية مخادعة.

جالت عيناه في أرجاء الجناح الأزرق المرتب، ولاحظ السرير المزخرف الذي فرش عليه غطاء قشدي اللون. إنها شابة طبيعية تتمتع بكامل عافيتها، وتحركها رغبات مكبوتة شأنها شأن أي شابة في مثل سنها، إلا أنها، وعلى الرغم من انهماكها في الأعمال الخيرية التي أثارت حماسها وشغلت جزءاً كبيراً من وقتها، ضاقت ذرعاً بزواجها العقيم وقررت أن تلبي دعوة حبيبها السابق، بحماسة وحرارة.

أحس بتقلص في معدته وهو يفكر... إنها زوجته بحق السماء! في تلك اللحظة، ظهرت ملهمة أفكاره المحمومة من الحمام، وشعرها الطويل مبلل، وبشرتها الحريرية لامعة، وقد لفت منشفة حول جسدها العاري.

جحظت عيناها العسليتان ذهولاً، وتقطعت أنفاسها من وقع المفاجأة.

تمزّق خافيير غيظاً، وهو يتخيل شيرمان يتمتع بهذا الجسد الجميل، بينما أصر هو على الحفاظ على تصرفاته النبيلة، متظاهراً برباطة الجأش أمامها. وكل حركة تقوم بها تلك الساحرة الصغيرة تزيد من شدة توقه إليها، توق قاومه بكل ما لديه من قوة. وما الذي جناه في نهاية الأمر؟

دفعته جيناته الإسبانية إلى مخاطبتها بازدراء وفظاظة، فقال: «لقد ألحقت بي العار، جعلتني سخرية الناس. ألا تعرفين معنى التحفظ؟ أم لعلكما اعتدتما، أنت وذلك السافل، على الأمر حتى لم تعودا تأبهان لشيء أبداً؟».

قرأت في عينيه التوبيخ، فرمته بنظرة ساخطة ملؤها النفور. كيف يجرؤ على اتهامها؟ ولعل أكثر ما أثار سخطها هو انتقاده اللاذع لافتقارها إلى التحفظ، بدلاً من أن يثور غضباً لفكرة مطارحتها شيرمان الغرام.

ليته يعرف كم تبذل من جهد لتضبط نفسها، ولا تطلق العنان لاندفاعها الغريزي، فتصفع ذلك الوجه القاسي.

لفت المنشفة بإحكام حول جسدها وقالت له بفتور: «إن كنت تخالني فاسقة، فما عليك سوى أن تبطل زواجنا كي لا ألحق العار بك ثانية. ولا تنسَ أن زواجنا بقي حبراً على ورق!».

لم تتخيل زوي أن الغضب قد يجعل منه إنساناً خطيراً إلى هذا الحد. وعلى الرغم من تصميمها العنيد، خانها جسدها، وراح يرتعش، فحاولت أن تبتلع ريقها لكن من دون جدوى.

بدا الهواء، في الغرفة، ثقيلاً، مشحوناً بالتوتر. فوجدت صعوبة في

التنفس.

لقد تزعزعت علاقتها بهذا الرجل الصعب المنال كلياً.

ارتعش فمها الرقيق، وسرت قشعريرة على طول عمودها الفقري، في حين أحست بالنيران الحارة تجري في شرايينها.

أخذت نفساً عميقاً وهي تراه يتقدم نحوها وقد استرخت خطوط فمه، وإذا بالمشاعر الجياشة تتقاذفها وترميها على شواطئ اللهفة المتقدة...

عليها أن تطلب منه أن يغادر غرفتها، فيؤجلا الكلام حول إبطال زواجهما إلى الغد، ريثما يستعيدا هدوءهما.

إلا أن الكلمات ماتت على شفتيها...

- أنت على حق، بقي زواجنا حبراً على ورق ذلك أنني تفاديت أن أتودد إليك، مع أنني كنت أتوق إلى ذلك.

كان خافيير يتكلم بصوت أجش، وتابع يقول: «قلت في نفسي إنك لا تزالين يافعة، ولا تعرفين ما تريدينه. ولكنك لم تعودي طفلة!».

ابتلعت زوي ريقها... لِمَ تظاهر باللامبالاة أمامها وأخفى عنها حقيقة مشاعره؟

إنه يريدها بكل جوارحه... قال لها ذلك بنفسه.

كانت تسمع ضربات قلبها المتسارعة وهو يقترب منها شيئاً فشيئاً، وعيناه مسلطتان على وجهها!

- لِمَ لم تقولي لي إنك ترغبين بإقامة علاقة حب حقيقية؟ إنه لمن دواعي سروري أن ألبي طلبك بدلاً من أن ترتمي بين أحضان رجل آخر.

بدا طبعه غريباً ومتقلباً وهو يكشف لها عن جانب جديد من شخصيته، لم يسمح لها برؤيته من قبل، فمررت لسانها على شفتيها الجافتين لتبللهما، وقالت: «لم أفعل...».

أرادت أن تعترض على كلامه، غير أنها عدلت عن ذلك وهي ترى

التصميم في ملامحه، وتسمع نبرة صوته المفعمة بالعواطف. مد خافيير يده ليلتقط خصلة شعر تدلت على خدها، وسألها: «أترغبين بتجربة العلاقة الحقيقية؟».

ومرر سبابته بخفة عند أسفل عنقها... فأجفلت من شدة اضطرابها.

- أجيبيني!

- ليس بهذه الطريقة!

دلّت نبرة صوتها على العذاب الذي تقاسيه، وأكملت تقول: «ليس إن كنت تكرهني».

ظهر طيف ابتسامة عند طرف فمه، وهو يقول: «أنا لا أكرهك، بل أكره تصرفاتك الحمقاء. فكري ملياً بما قلته، ريثما أبحث عن جواب عن سؤالي».

للوهلة الأولى، لم تفهم قصده. غير أنها ما لبثت أن أدركت معنى كلماته، حين أمسك بكتفيها...

- إن طلبت مني أن أتوقف، فسأفعل في الحال.

سنوات طويلة وهي تتحرق للمسة منه. لكنه يعتقد أنها امرأة فاسقة، وكبرياؤها لا تسمح لها بالاستمتاع بلمساته. غير أن رجليها أبتا الإذعان لإرادتها.

أحس خافيير بارتعاش جسدها. لم يكن فخوراً بما يفعله، غير أن قوة قاهرة كانت تحركه. إنها قوة المشاعر الجامحة.

منذ فترة ليست ببعيدة، أدرك أن مشاعره تضطرب كلما وجد نفسه في حضورها، فارتأى أن يتجنب لقاءها كي لا يقع ضحية إغرائها... فصفقتهما تحظر عليه التودد إليها... زد على ذلك، إنها لم تنضج بما فيه الكفاية، وهو لا يريد أن يستغل سذاجتها. لكن الأمور تغيرت، وتحولت شكوكه بشأن فقدانها عذريتها باكراً إلى يقين.

كان حري به أن ينسى أمرها، إلا أنه لم يفلح. إنه يرغب الآن في أن يمسح من ذهنها ذكرى كل الرجال الذين عرفتهم في حياتها من قبل.

إنها زوجته، وله مطلق الحق في ذلك!

تنقلت أصابعه على بشرتها الناعمة فأحس بالدماء تسري حارة في عروقه. لكن، إن طلبت منه أن يبتعد عنها فسيذعن لرغبتها على الفور. ويغادر غرفتها إلى غير عودة.

أطلقت زوي أنيناً خافتاً... فلمساته الرقيقة شوشت أفكارها وأوقعتها في الحيرة. بدت عيناه أشبه بكتلتين ضبابيتين تشتعل فيهما نيران اللهفة. خطا خطوة أخرى نحوها حتى أصبح على بعد شعرة منها، فأحست بارتعاش جسده وتسارع دقات قلبه.

كم مرة حلمت به مرات لا تحصى... غير أنها لم تدرك يوماً أن الأمر سيكون بهذه الروعة.

أمسك خافيير رأسها بين يديه، ورفع وجهها نحوه لتلتقي عيناهما.

رفعت زوي قدميها قليلاً، كأنها تسير في نومها، لتقترب منه أكثر، فألهب قربه منها حواسه، ومع ذلك، لم يفقد خافيير قدرته على تمالك نفسه. وعاد يسألها بصوت أجش: «هل أتوقف؟ أجيبيني!».

٥ ـ هدية طال انتظارها

إنها لمعجزة حقاً! فصورة الفتاة البائسة، والمراهقة المزعجة اختفت من أمام عيني خافير، وحلت محلها صورة المرأة الناضجة. امرأة يريدها بكل جوارحه.

أضف إلى المعادلة، ذلك الحب الكبير الذي كانت زوي تكنه له فيصبح التراجع مستحيلاً.

هل رأيه فيها مهم إلى هذا الحد؟ ألا يقال إن نصف رغيف من الخبز خير من لا شيء؟

أليس حبها له هو الشيء الوحيد المهم في نظرها؟

مدت زوي يديها لتجذبه نحوها باحثة عن جواب عن تساؤلاتها.. أحبه، أحبه بجنون... إنها الفكرة الأخيرة التي مرت في ذهنها قبل أن يغرقها خافير في عناق محموم.

دست ذراعيها حول عنقه تبادله عناقه بآخر أكثر شغفاً، تاركة يديها تسرحان على هواهما بين خصلات شعره الأسود.

راح قلبه يخفق بعشوائية، وقد ازدادت الرغبة حدة وتحولت إلى ضرورة ملحة.

كيف تمكنت هذه الساحرة من قلب الموازين فجذبته إلى حقلها المغنطيسي؟ ولم تكتفِ بذلك فحسب، بل جعلته يتخلى عن احترامه لنفسه، وبات قراره بالابتعاد عنها أشبه بكيس ورق بالٍ.

بدا عاجزاً عن ضبط نفسه في حضورها، كأنه طفل حديث الولادة..

مرّت أشهر طويلة وهو يقاوم بعناد، رافضاً أن تتغلب أهواؤه على عقله، إلا أن الأحداث التي جرت هذا المساء رمت بأخلاقه النبيلة من النافذة.

تنهد خافير تنهيدة نابعة من أعماق قلبه، وحملها بين ذراعيه إلى السرير الذي فرشت عليه أغطية نظيفة بيضاء. إنها زوجته بحق السماء!

* * *

تسلل نور الصباح الباهت من النافذة المفتوحة، وعلت زقزقة العصافير فملأت المكان. استيقظت زوي من نومها وعلى وجهها إمارات الرضا.

التفتت نحو زوجها، فرأت ظهره القوي العضلات الذي أضفت الشمس عليه لوناً أسمر جميلاً.

مدت يدها لتداعبه إلا أنها عادت وغيرت رأيها، فهو يحتاج إلى قسط كبير من الراحة.

وتذكرت ليلة البارحة...

امتلأ قلبها فرحاً... لم يكن ذلك حلماً، إنه واقع ملموس فاق كل أحلامها جمالاً.

تململ زوجها في سريره، فراحت زوي ترسم بأصابعها خطوط ظهره الصلب. لم يحرك في بادئ الأمر ساكناً، وقد حبس أنفاسه. وبعد قليل استدار نحوها، ليقابل عينيها الذهبيتين قائلاً: «زوي...».

ومد يده يداعب وجهها، فابتسمت له ابتسامة مضيئة بكل ما فيها من حيوية وتألق.

فجأة، اجتاحته موجة من تأنيب الضمير، فأمسك بيديها اللتين كانتا تزرعان الفوضى في حواسه، وأبى أن يفلتهما.

أدرك خافير أنه مرغم على تحطيم هذا الإحساس بالإلفة بينهما،

فالكلام الذي يريد أن يقوله لها سيمحو هذا الإشراق عن وجهها، ويحول النور المنبعث من عينيها إلى نظرات بغض واشمئزاز. لكنه يستحق ذلك، فهو يشعر بالاشمئزاز من نفسه.

- زوي...

أطبقت أصابعه على أصابعها، فضغطت على أصابعه بدورها وعيناها تنبضان بالثقة. فكر خافيير أنه لا يستحق ثقتها... لحظات قليلة وسيقضي كلامه عليها.

- إنها المرة الأولى التي تقيمين فيها علاقة مع أحد. سامحيني... كنت غاضباً... وخطر لي...

- أعرف جيداً ما الذي دار في ذهنك.

وحررت إحدى يديها من قبضته ثم وضعت إصبعها على فمه لتسكته.

- ظننت أنني عشيقة أوليفر شيرمان، لا يمكنني لومك بعد تلك الرسالة التي دسها في باقة الورد. وعندما سألتني قبل زواجنا ما إذا طارحته الغرام، رفضت الإجابة بشكل صريح.

التمعت عيناها، واختلج جفناها، وهي تتذكر رغبتها الشديدة بالنيل منه، لأنه يحتفظ لنفسه بحق إقامة علاقة مع أي امرأة يصادفها، في حين يصر على بقائها طاهرة عفيفة.

قطب خافيير جبينه وضاقت عيناه، فحررت زوي يدها الأخرى وراحت تمسد خطوط جبينه برقة، ثم قالت: «أسأت الظن بي ليلة البارحة. لم يحضر أوليفر مراسم الزواج، لكنه وصل إلى حفل العشاء متأخراً، وأحضر معه مجموعة من الشبان لم يسبق لي أن التقيت بهم. لم أشأ التحدث إليه بعد تلك الرسالة اللعينة، وعندما هممت بالانصراف انقض علي. والباقي، أنت تعرفه».

شعر خافيير بالخجل من نفسه، فهو لم يكن أفضل من أوليفر، وقال

لها: «أنا لست بأفضل منه، كنت عذراء، أنا استغليت عذريتك... ليتك أخبرتني بذلك من قبل».

ارتسمت على ثغرها ابتسامة ملتوية جعلت قلبه يقفز من مكانه.

- أردتك أن تكتشف الأمر بنفسك.

دفنت زوي وجهها بين ذراعيه، فراح جسده يتوسل إليه كي يقبل هديتها.

إن هذه المرأة تقوده على هواها وكأنه خاتم في إصبعها... وفكر أن هذه المرأة هي زوجته!

- لكن أموراً كثيرة تغيرت!

كان جسده ينبض بالرغبة إلا أن عقله صم أذنيه عنها، فابتعد عن تلك الساحرة الصغيرة، وأنزل رجليه عن ذلك السرير الذي شهد ليلتهما الأولى كزوجين حقيقيين. خالجه شعور بالذنب وهو يفكر أنه خرق شروط زواجهما الصوري.

- قلت لي البارحة إن زواجنا قد انتهى، وها أنا أقول لك إنك مخطئة.

والتقط قميصه التي رماها ليلاً على الأرض، وارتداها على عجل، وهو يتابع كلامه: «أرفض الطلاق رفضاً قاطعاً!».

اقشعر بدنها، أتراه يظن أنه بذلك يفرض عليها عقوبة السجن المؤبد، في الوقت الذي فتح لها فيه أبواب الجنة، وحقق الأحلام الوردية التي لم تفارق خيالها منذ أن كانت في الخامسة عشر من عمرها؟

دفنت زوي خدها في كتفه الصلب وهي تقول له مدمدمة: «لا عليك!».

إنها تحبه حباً جماً... شعرت كأن خلايا جسدها تتفكك لتتحوّل إلى نهر حلو المذاق من اللهفة والهيام.

- من يدري؟ قد أكون حاملاً!

قالت له ذلك بصوت خافت وقد أحست بسعادة غامرة. إلا أن ردة فعل خافير جاءت على العكس مما توقعت، إذ تصلب فكاه، وهبّ واقفاً، ثم راح يبحث عن ملابسه التي كانت مرمية على الأرض ليرتديها بسرعة. بهتت زوي لحركته تلك، وجلست في السرير بعد أن أسندت ظهرها إلى الوسادة.

لقد ترك خافير التيار يجرفه من دون مقاومة، فهبّ يطالب بحق حرم نفسه منه طويلاً من دون أن يمعن التفكير في الأمر.

أحس بالارتياح وهو يدير لها ظهره، كي لا تقرأ على وجهه علامات الاشمئزاز من نفسه! أين اختفى حسه بالمسؤولية ليقدم على خطوة طائشة قد تجعل منه أباً في المستقبل القريب؟ فهو لا يخال أن مسألة الإنجاب والأمومة تحتل مكانة هامة في حياة زوي. أتراها عدلت عن هجره بعد أن خيل إليها أنه تعمد أن يقيم علاقة معها كي يجعلها حاملاً منه؟

ماذا لو تبين أنها ليست حاملاً؟ هل ستبدل رأيها وتهجره، كما أعلنت صراحة مساء أمس؟

لم يشأ، في تلك اللحظة، أن يمعن التفكير في حقيقة المشاعر التي قد تخالجه في هذه الحالة. وقال لها بحدة: «أراك عند الفطور».

ثم توجه نحو الباب بخطىً سريعة، وأضاف: «علينا أن نضع النقاط على الحروف بعيداً عن سرير العشق هذا، إنه يشوش أفكارنا!».

توقفت أنفاسها في حلقها، لدى سماعها نبرة صوته المروعة. ما الذي قاله؟ أمازال عقله الباطن يميل إلى اتهامها بأنها امرأة عابثة؟ لاشك أن تصرفاتها الجامحة ليلة أمس، واستسلامها الكلي له من دون خجل أو ارتباك، رسخ هذه الفكرة في رأسه! حدّقت بالباب الذي أغلقه خلفه، وقد اغرورقت عيناها بالدموع...

المكافأة العظيمة التي حظيت بها، بقبوله بها زوجة فعلية له وأماً

لأولاده، تحولت إلى رماد تطاير من بين أصابعها.

ليتها لم تأتِ على ذكر الحمل أمامه! كانت هذه زلة لسان سخيفة، سعت من خلالها إلى إخفاء السعادة الكبرى التي غمرتها، حين أعلن رفضه القاطع للطلاق. لعله استمتع معها، إلا أنه لم يقع في حبها بعد. ولابد أنه سيضيق ذرعاً بها إن اعترفت له بحبها الكبير الذي عجز الزمن عن إطفاء شعلته في قلبها. فخافير من النوع الذي يأخذ مسؤولياته على محمل الجد، وأكبر دليل على ذلك الطريقة التي اتبعها ليطلب يدها للزواج، ولن يسر كثيراً بإلقائها مسؤولية جديدة على عاتقه.

أرغمت زوي نفسها على النهوض من السرير الذي كان شاهداً على ابتهاجها الغامر، وآمالها الواعدة بمستقبل جميل، وثقتها التامة من أنه سيبادلها يوماً مشاعر الحب كما بادلها الأشواق المحمومة...

استعادت وضوح أفكارها بعد أن خرجت من الحمام وقد لفت المنشفة حول جسمها. لم يرفض خافير فكرة الطلاق بدافع الإصرار على إبقائها إلى جانبه، طوال العمر، بل بدافع الإصرار على الالتزام بالمهلة التي حددها، منذ البداية.

ستان... لن يرضى بالطلاق قبل مرور سنة أخرى على زواجهما، واستلامها إرثها وإثباتها لقدرتها على إدارته بشكل حسن...

لقد أوضح لها أنه يشعر بالخجل من نفسه. فقد شوش ذلك أفكاره وأعمى بصيرته، وسيحرص حتماً على عدم تكرار ذلك ثانية.

ولا شك أن الطريقة الأفضل لتحقيق ذلك، هي بمعاملتها ببرودة، من جديد، والتغيب عن المنزل بشكل مستمر.

غير أن زوي لم تعد قادرة على تحمل المزيد!

أتراها المرأة الأخيرة على وجه الأرض التي قد يختارها أماً لأولاده؟ أتراه رأى مصيدة من حديد؛ على بعد خطوتين منه، حين أتت على ذكر الحمل؟

دفعتها كبرياؤها المجروحة إلى التظاهر بما لا تُضمر، فنزلت لتناول فطورها مرتدية سروالاً ذا لون أصفر زاهٍ، وقميصاً رقيقة ملائمة دون كمين، وعلى ثغرها ابتسامة ساحرة.

رمى خافير جريدة الصباح، التي حاول عبثاً أن يقرأ ما جاء فيها، ورفع عينيه نحو زوجته وهي تدخل الغرفة، وقد أحس بضيق في صدره.

بدت زوي متألقة، بل أكثر تألقاً من أشعة الشمس المتسللة من النافذة. فشعرها الحريري يتماوج بحيوية، وساقاها النحيلتان تتحركان برشاقة، وعيناها تتألقان ببريق رائع.

ضاقت عيناه وهو يراها ترد على ترحيب بوزي الحار بها بجفاوة. نهض من مكانه، وساعدها على الجلوس على الكرسي المقابل له.

كانت تضع أحمر شفاه زهري اللون على شفتيها ما زاد من إغرائهما وجعل نبضات قلبه تتسارع، إلاّ أنه تجاهل نبضه المتسارع وصب لها القهوة، وهو يقول: «تناولي بعض الطعام».

جاءت نبرته أقرب إلى الأمر، وقد رآها تقطع شريحة الخبز المطلية بالزبدة إلى قطع صغيرة وتطعمها للجرو الصغير.

هل فقدت شهيتها للطعام لشدة خوفها من الحمل المحتمل؟

عاد يؤنب نفسه بصمت... صحيح أن كلام شيرمان أثار اشمئزازه، لكن اشمئزازه من نفسه كان أعظم لأنه صدّقه، وأهمل واجباته تجاهها، متذرعاً بأعماله التي لا تنتهي.

- علينا أن نتحدث بشأن وضعنا الجديد.

أثار الاشمئزاز البادي في نبرة صوته ارتعاش شفتيها، فضمتهما بقوة، وناولت كلبها الكث الشعر القطعة الأخيرة من الخبز ثم التفتت نحوه، وهي تبعد بمؤخرة يدها الرشيقة شعرها عن وجهها.

ومضت عيناها بوميض التمرد، وتصلبت كتفاها من تحت قميصها

الرقيق. أدركت زوي أنه نادم على وضعهما الجديد، كما أسماه.

من المريع حقاً أن تغرم به بجنون من دون أن يبادلها شغفها المجنون هذا بالمثل. حسناً، إنها لن تسمح لنفسها بالافصاح عن حقيقة مشاعرها. رفعت ذقنها بتحدٍ، وعيناها لا تفارقان عينيه الضبابيتين. في تلك اللحظة، دخل جو إلى الغرفة، مبتسماً ابتسامة عريضة، وقال: «اعذرني يا سيدي، لكن حان موعد نزهته الصباحية. سأصطحبه بنزهة في الغابة، وعلى ضفاف البحيرة».

وصفر صفيراً خافتاً، استجاب له الكلب، وأسرع نحو الرجل الواقف عند عتبة الباب.

- سأتولى ذلك بنفسي...

نهضت زوي من مكانها، والغيرة تتآكلها وهي ترى بوزي يظهر الولاء لسيده الجديد لكن خافير أمسك بمعصمها وأرغمها على الجلوس مكانها، قائلاً: «خذه يا جو!».

حدقت به زوي بعينين ملؤهما الغضب، وهي تجاهد نفسها كي لا تنفجر بالبكاء. بالطبع، لم تكن تصرفات بوزي هي السبب. فالحق يقال، إنها شعرت بالارتياح الشديد لدى رؤيته سعيداً مع أسرته الجديدة، لا سيما وأنه أبدى تحفظاً كبيراً حيال جو وإيثيل، عند وصوله إلى المنزل. كلا... إن تصرفات خافير هي المزعجة.

مساء البارحة، شعرت وكأنهما التقيا بعد طول انتظار، فاتحد قلباهما تماماً كما اتحد جسداهما، إلا أن تصرفاته هذا الصباح تنم عن نفاد صبره... إنه يتمنى حتماً لو أن عينيه لم تقعا عليها قط!

- اعتاد على مرافقتي في نزهة الصباح، كلما سنحت لك الفرصة لاصطحابي إلى هنا في عطلة نهاية الأسبوع!

بدا كلامها سخيفاً، إلا أنها لم تجد ما تقوله لتبرر الدموع المترقرقة من عينيها. لن تدعه يعرف أن معاملته لها بنفاد صبر، والتغيير المفاجئ الذي

طرأ على علاقتهما الزوجية، جعلها على وشك أن تجهش بالبكاء!

مال خافيير إلى الأمام، مسنداً ساعديه إلى الطاولة، وحاجباه السوداوان معقودان. وفكر أن ردة فعلها بدت عنيفة جداً عند رؤيتها لكلبها العزيز على قلبها، يفضل صحبة جو على صحبتها. لاشك أن بصمات الحرمان الذي عانت منه طويلاً، بقيت محفورة في داخلها.

- لا عليك!

قال لها ذلك بنبرة جافة، قبل أن تمر في ذهنه صورتها وهي مستلقية بين ذراعيه.

لم تعد زوي طفلة . . . ألم يع ذلك منذ أشهر طويلة؟ إنها امرأة بكل ما للكلمة من معنى. صحيح أنها المرة الأولى التي تعاشر فيها رجلاً، إلا أنها تصرفت على طبيعتها. اشتعلت عيناه اشتعالاً لمجرد تفكيره في الأمر، فاستقام في مجلسه، وقال لها: «حاولي ألا تكوني عاطفية إلى هذا الحد، كي لا تفضح قسمات وجهك مشاعرك. أتريدين المزيد من القهوة؟».

هزت زوي رأسها بصمت.

إنه تحذير مبطن، أليس كذلك؟ إنه يحذرها من مغبة الإمعان في التفكير في ما حصل بينهما البارحة، أو أخذه على محمل الجد.

نظر إلى عينيها الذهبيتين المتلألئتين. . . عينان يغرق المرء في بحرهما. وأحس بالجو يعبق بالتوتر المحموم.

إنها جميلة جداً. . . وأصبحت له بكليتها من دون أي مقاومة، ومن دون أن يخطط لذلك.

في الواقع، قاوم خافيير محاولاتها الخجلة لإغوائه، منذ اللحظة الأولى التي أدرك فيها حقيقة نواياها.

ولكن زواجهما الصوري تحول إلى حقيقة حية، وهو يود أن يجعله كذلك بصورة مستمرة. عليه أن يبذل كل ما بوسعه ليطرد من ذهنها

القرار الذي اتخذته بهجره.

كم كان مغفلاً حين خطر له أنه يستطيع الاحتفاظ بهذه المخلوقة الجميلة، المراوغة، الذكية إن فرض عليها مجموعة من القواعد الإجرائية! مغفل لم يدرك أنه بدأ يغرق في بحر الحب الذي لا قرار له. لكن الوقت لم يحن بعد ليفصح لها عن مكنونات قلبه.

ففي سن المراهقة، عاشت زوي حالة من الحب العاصف، حب تلاشى مع مرور الزمن، ولم يعد له وجود، وإلا لما كانت مصممة على هجره.

عليه أن يزعزع كيانها من جديد، فتجد نفسها عاجزة عن العيش لحظة واحدة من دونه.

مال خافيير إلى الخلف، مستنداً إلى ظهر كرسيه باسترخاء. شعر وكأن عبئاً ثقيلاً انزاح عن كاهله، فقد اعتاد منذ صغره على بلوغ مراده، مهما كان صعباً.

ارتسمت على ثغره ابتسامة متألقة، ابتسامة سلبت عقل زوي وأشعلت نيران المشاعر في أحشائها.

إنها تحب هذا الرجل لأسباب لا تحصى.

نظر إليها مبتسماً ابتسامة عريضة ساحرة، ثم قال: «سنسافر الأسبوع المقبل إلى إسبانيا في رحلة شهر عسل متأخرة».

شعرت زوي بكيانها يتفتت قطعاً صغيرة، تتناثر في أرجاء الغرفة كلها.

اكتفت بالنظر إليه مشوشة الذهن، وقد توهج خداها من شدة فرحها.

لن تتمكن يوماً من فهم ما يطرأ على رأسه بين لحظة وأخرى. لكن اكتشاف ذلك سوف يكون مثيراً دون شك.

٦ ـ يومها، بدوت فاتنة!

كانت مياه البحر الزرقاء المخضوضرة تتلألأ تحت أشعة شمس إسبانيا المتوهجة، وأوراق أشجار الأوكالبتوس المتدلية، تتمايل بتراخٍ مع النسيم الناعم الخفيف.

وقفت زوي تتأمل المنظر الهادئ للشاطئ الرملي المهجور، وراء الحدائق المشذبة، وعيناها شاردتان.

اتكأت إلى السور الحجري المزخرف المحيط بالشرفة. تلك الشرفة التي تحيط بالڤيلا من الجهات الثلاث، أما الڤيلا نفسها فذات جدران بيضاء مبنية على الطراز الأندلسي.

فجأة، قفز قلبها من مكانه، وقد وقعت عيناها على خافيير وهو يخرج من أحد الأبواب، حاملاً بيديه القويتين صينية وضع عليها مشروبات باردة.

أحست بالدوار وهي تتأمله في تلك الملابس المريحة التي حلت محل ملابس السفر الرسمية.

ارتعش فمها وراحت عيناها تحملقان في جسده النابض بالرجولة وقد ارتدى بنطلوناً قصيراً وقميصاً قطنية تتلاءم مع بشرته السمراء.

حبست زوي أنفاسها...

صحيح أنهما معاً في هذه البقعة الجميلة الرومنسية، لكن كلاً اختار له كوكباً مختلفاً عن الآخر.

كانت زوي مرتبكة، عاجزة عن بلوغ كنه معاملته الغريبة لها منذ تلك الليلة. فاحتارت في أمرها، لا تعرف ما إذا كان عليها أن تنفجر بالبكاء أم بالضحك... ربما من الأفضل لها أن تنفجر بالبكاء والضحك في آن معاً.

عضت على شفتها السفلى، لتردع نفسها عن الإقدام على أي خطوة قد تندم عليها لاحقاً. عبرت الشرفة الطويلة، لتجلس إلى طاولة مركونة في ظل عريشة، وضع خافيير عليها زجاجة العصير المثلج، وكوبين طويلين.

أقرت في سرها بأن تسارع الأحداث هو السبب الأساسي في ارتباكها. فإن وضع خافيير هدفاً نصب عينيه، من المحال أن يتلكأ عن بلوغه.

في بادئ الأمر، خيل إليها أن رحلة شهر العسل المزعومة هي خطوة نحو ترسيخ زواجهما، وإزالة خوفها الكبير من أن يصر على الالتزام بالفترة الزمنية التي حددها لهذا الزواج، مع الحرص على عدم تكرار الخطأ الذي ارتكب الليلة الفائتة. أما إذا تبين له أنها حامل، فعليه أن يتصرف كرجل نبيل، ويذعن لمشيئة القدر.

أحست بالغثيان وهي تفكر بهذا السيناريو البغيض.

في ذلك اليوم الذي ابتسم لها فيه ابتسامته الساحرة، وأبلغها عن رحلة شهر العسل المتأخرة، خطر لها أن ما حصل بينهما الليلة الفائتة، حثه على إعادة النظر في الأمور، فقرر أن يتمسك بها كزوجة شرعية له، بعد أن بدأ حبها يتسلل إلى قلبه.

غير أن تلك الحالة من الابتهاج الغامر لم تدم لأكثر من ساعتين... فهي لم تعد متأكدة، بل لم تكن متأكدة قط.

- كنت أتساءل أين اختفيتِ!

ورماها بابتسامة أذابت أوصالها. تمنت زوي لو أنها تستطيع أن تمد يدها لتبعد خصلة الشعر التي تدلت على جبينه. نظرت إليه وهو يجلس

على الكرسي المقابل لها، وهزت كتفيها بلا مبالاة، قائلة: «قمت بجولة في المكان!».

أرادت أن تبقى بعض الوقت لوحدها، علّها تستطيع أن تسبر أغوار أفكاره، وتفهم حقيقة ما يريده منها، ومن زواجهما.

فبعد دقائق قليلة من إعلانه عن ذهابهما في رحلة شهر عسل إلى إسبانيا، أقفل على نفسه غرفة المكتب لساعتين تقريباً. غادر بعدها إلى لندن، مكتفياً بالقول لها بنبرة جدية أثارت روعها: «سأعود بعد يومين. علي أن أجلب جوازي سفرنا وأوضب حقائبنا».

في تلك اللحظة تحولت أحلامها السعيدة إلى أشلاء...

- أتينا إلى هنا من قبل، ألا تذكرين؟

وضع كوب العصير أمامها على الطاولة، وظهر وميض باكر في تينك العينين الضبابيتين. أتراه يهزأ بها؟

كيف لها أن تنسى تلك الإجازة؟ كيف لها أن تنسى الموقف المحرج الذي زجت نفسها فيه ساعة صرحت له بحبها؟ حب لم يعره أي اهتمام أبداً.

هزت زوي كتفيها بلامبالاة، ثم قالت: «كم مضى على تلك الإجازة؟ ثلاث سنوات... إنها فترة طويلة، تغيرت خلالها أمور كثيرة».

لكن زوي لم تتغير، فهي ما زالت تحبه بجنون. ولم تتغير نظرة خافيير إليها أيضاً... وازداد تململه من واجباته تجاهها، خاصة بعد تلك الليلة المحمومة التي يفضل أن ينساها، ويتمنى من كل قلبه لو أن شيئاً لم يحصل بينهما.

أطبقت زوي أصابعها حول كوب العصير البارد.

بدا مهذباً جداً معها هذا الصباح، حين جاء لاصطحابها من واكهام لودج. إلا أن برودته المفرطة أثارت غيظها.

وخلال رحلتهما في طائرة الشركة الخاصة، تساءلت زوي بصمت ما إذا عرف التاريخ زوجين مثلهما، يسافران في رحلة شهر العسل من دون أن يمسك أحدهما بيد الآخر...

وكلما حاولت أن تتحدث معه في مسألة هامة، مثل مستقبلهما معاً، غيّر الموضوع بلباقة، وانكب على قراءة الملفات التي كانت تنتظره عند صعودهما إلى الطائرة...

فارتأت في نهاية المطاف أن تلقي سلاحها.

- كم ستطول إقامتنا هنا؟

التقت نظراتهما، فحاولت زوي جهدها أن تتظاهر باللامبالاة، وكأن سؤالها يدخل في إطار دردشة عادية.

لكن الموضوع كان يثير حيرتها، خاصة وأنها استشفت، من خلال موقفه منها، أن رفضه القاطع للطلاق لن يدوم لأكثر من سنة واحدة. فخافيير يملك حساً قوياً بالواجب، ولا يهمل مسؤولياته مثقال ذرة. وقد تعلمت زوي على مر السنوات أن تتقبل هذا الجانب الأساسي من طبعه.

لمَ تكبد عناء إحضارها إلى الميريا، هذه البقعة النائية التي لم تشوه يد الإنسان طبيعتها بعد؟ في الواقع لم تجد زوي أي مبرر لتصرفه هذا، فهي لا تخاله أبداً راغباً في مطارحتها الغرام بشغف مجنون، معززاً، بالتالي، ارتباطهما. فمنذ تلك الليلة، وهو يتفادى لمسها حتى عرضياً.

خلال رحلتهما من المطار إلى المنزل، لعب خافيير دور المرشد السياحي، بينما كان سائقه يقود السيارة.

استفاض في الحديث عن ميزات هذه المنطقة إلى أن أصيبت زوي باليأس والاحباط، وتملكتها رغبة شديدة بصفعه، وهي تنتظر، سدى، أن ينتقل بالكلام إلى أمور أكثر خصوصية.

كانت زوي تتأمل ملامح وجهه الوسيم منتظرة رده على سؤالها،

وحماستها تزداد مع مرور الثواني. إنه يدين لها بتفسير!

أجابها خافيير، من دون أن يمعن التفكير في كلماته: «لن نغادر إلا في الوقت المناسب».

وتركزت عيناه على النبض المتسارع عند أسفل عنقها الطويل، فراحتا تلاحقان خطوط العظام، متمهلتان فوق بشرتها العسلية، التي بدت من خلال قميصها الحريري ذي الياقة المحفورة...

كان التوتر بادياً عليها، وبريق عينيها الجميلتين مشوب بالارتياب والتحدي..

وجد خافيير صعوبة في مقاومة لهفته الشديدة إلى ضمها بين ذراعيه.

أطلق تنهيدة عميقة. عليه أن يتحلى بالصبر، ويعاملها بحذر. كان يفهم جيداً نظرتها للأمور، ويكفي أن يضغط عليها قليلاً لتتوارى عن الأنظار بلمح البصر.

فمنذ ثلاثة أيام، أبدت استعدادها التام للتخلي عنه، لأسباب احتفظت بها لنفسها. أسباب لا يتوقع أن تزول إثر تلك الليلة المحمومة.

لكنها زوجته، ولن يتخلى عنها مهما كلف الأمر. لذا، عليه أن يتقن اللعب، ويأخذ كل ما يلزمه من الوقت ليتمكن من إيقاعها في حبه...

- لن نغادر قبل أن تتأكد من حملي، أليس كذلك؟

قالت زوي ذلك، وهبت واقفة من مكانها والشرر يتطاير من عينيها. لقد وجدت الرد على سؤالها، إلا أنه لم يرق لها أبداً. أبعدت اليد الممدودة لمنعها من مغادرة الشرفة، ومشت بخطى سريعة نحو المنزل.

لقد ساورتها الشكوك بهذا الشأن، أليس كذلك؟ فلِمَ يعتصر الألم فؤادها؟ ولِمَ تصاب بالذعر كلما واجهها بالحقيقة؟

جو الڤيلا المريح بأرضيتها الرخامية البيضاء، وجدرانها المطلية بطلاء أخضر باهت وأثاثها الأنيق المترف لم يخفف من حدة اضطرابها.

هل عاد يلعب دور الرجل الغريب المهذب، ليخفي انزعاجه الشديد مما سيحل به إن تبين له أنها تحمل طفله؟ فعلاوة على عجزه عن الانفصال عنها، سيفقد حريته، التي بقي يستمتع بها خلال الفترة الأولى من زواجهما الصوري.

- أظنك تحتاجين إلى حمام منعش بعد رحلتنا الطويلة. سأقودك إلى غرفتك.

أجفلت زوي، فهي لم تسمعه يلحق بها إلى الداخل. تسارعت دقات قلبها وقد عقدت عزمها على أن تكرهه، مهما كان الثمن.

قالت له بنبرة جافة: «لا تزعج نفسك. سترشدني تيريزا إلى غرفتي».

بقيت صورة مدبرة المنزل البدينة الدائمة الابتسام عالقة في ذهنها. وتمنت لو أنها تظهر في تلك اللحظة أو ترسل زوجها مانويل، الذي توارى عن الأنظار بعد أن أوصلهما من المطار إلى المنزل.

شعرت زوي أنها تحتاج إلى أي شخص ليلعب دور الحاجز بينها وبين زوجها الذي لا يريدها، ويصاب بالغثيان كلما مرت في رأسه ذكرى تلك الليلة اليتيمة بينهما.

غير أن يده الصلبة أمسكت بساعدها، وقادتها إلى السلم الرخامي ذي الدرابزين الحديدي، المتقن الصنع، وهو يقول لها: «طلبت من تيريزا العودة إلى منزلها في القرية برفقة زوجها مانويل. ألا تعتقدين أن زوجين يقضيان شهر عسل يحتاجان إلى الانفراد ببعضهما البعض؟».

تعثرت زوي لدى سماعها كلامه الساخر...

لا شك أن هذين الزوجين اللذين يمضيان شهر عسل، يحتاجان إلى الانفراد ببعضهما البعض، حتى لا يكثر قال الخدم وقيلهم عن علاقتهما الخالية من مشاعر الحب. اجتاحتها موجة عاتية من البؤس والحزن. ليتها لم تشجعه بحماسة تلك الليلة، لتجد نفسها بعد ذلك في هذا الموقف الغريب.

فجأة، تحول السلم الرخامي الجميل إلى منحدر شديد الانحدار، وأخذت ركبتاها ترتجفان.

رماها خافير بنظرة عابثة، وحملها بين ذراعيه، وصعد بها السلم.

استشاطت زوي غضباً وراحت تتلوى، مهددة متوعدة، صارخة في وجهه كي ينزلها إلى الأرض، بينما كانا يقتربان من الباب المفتوح المؤدي إلى غرفة النوم الرئيسية.

- جرت العادة أن يحمل العريس عروسه، ويجتازا معاً عتبة الباب.

حاولت أن تكبح جماح جسدها كي لا يتفاعل مع كلماته، فيما كان يضعها برقة على السرير. فأسرعت تهاجمه بفظاظة، وقد تقطعت أنفاسها: «لا أرى أحداً هنا ليصفق لك، ولا داعي لتعرض نفسك إلى خطر الإصابة بالفتاق».

كانت عواقب الخزي الذي ألحقته بنفسها تقض مضجعها. فتلك الليلة، كانت مميزة جداً بالنسبة إليها. ليلة لا يرى خافير فيها إلا غلطة فظيعة. وكأنما أراد أن يؤكد لها هذا الواقع المحرج، ابتعد بسرعة عن سريرها وكأنه لا يريد أن يتواجد قربها.

استقامت زوي في مجلسها، رافضة أن تبقى مستلقية في البقعة التي وضعها فيها، وكأنها توجه إليه دعوة صريحة، لن يلبيها أبداً ثانية.

- مضت سنة تقريباً على زواجنا، ولم أعد عروساً بكل ما للكلمة من معنى. وأظن أن حملك لي فوق عتبة الباب ليس سوى مزحة سخيفة. لا أذكر أنك حملتني من قبل.

إنها مزحة جارحة، أحبطت كل الآمال التي علقتها على هذا الزواج...

ترقرقت الدموع من عينيها، فابتلعت ريقها، وأحنت رأسها، لتشبك أصابعها، وتمنع دموعها من الانهمار.

أحست بقلبها يتمزق وهي تسمعه يقول لها بنبرة رقيقة هادئة: «أذكر المرة الأولى التي حملتك فيها. يومها كنت في العاشرة من عمرك، واصطحبتك إلى حديقة الحيوانات. أمضيت النهار بكامله تركضين من مكان إلى آخر، تريدين رؤية كل شيء مرة واحدة. ومع حلول المساء، بلغ الإنهاك منك مبلغاً، ولم تتمكني من السير إلى السيارة، فاستسلمت للنوم بين ذراعي وكأن أحدهم ضغط على زر لإطفائك. بدوت فاتنة يومها، على الرغم من اتساخ وجهك الصغير...».

وتوقف فجأة عن الكلام، وكأنه يتساءل بصمت كيف مرت تلك الذكرى في رأسه. وعاد يقول: «استحمي وحاولي أن تنامي قليلاً. طلبت من تيريزا أن تفرغ حقائبك، وستجدين أغراضك كلها في غرفة الملابس. سنتناول العشاء في ساعة متأخرة...».

تركها مشوشة الذهن، تفكر في بذور الحب التي بذرت في قلبها الفتي. يوم كان في نظرها أخاً حنوناً، لطيفاً، يهتم لأمرها. أخ هو الألطف والأفضل في العالم.

أقفل خافير باب الغرفة بعناية بالغة، وأخذ نفساً عميقاً وهو يصر على أسنانه. كان موقفه حرجاً للغاية، إذ يكفي أن يرمقها بنظرة واحدة لتشتعل اللهفة في أحشائه، ويهدد جسده بالامساك بلجام الأمور ونسف خططه العقلانية من أساسها.

ففي تلك الليلة، أعمى الغضب بصيرته، ولم يدرك أنه على وشك أن يشهد أعظم حدث في حياته. كانت زوي تلميذة مذهلة ونبيهة، تواقة إلى التعلم. وجلّ ما عليه أن يفعله هو أن يعود إلى غرفتها ويأخذها بين ذراعيه، ليغرقها في عناق محموم، عناق تحرق جسده شوقاً إليه.

راح توقه الشديد للعودة إلى غرفتها وزرع الفوضى في حواسها، يهمس في أذنه بخبث. لقد بادلته زوجته المشاعر بشغف ولهفة، وما حرمان نفسه من دخول جنتها من جديد، إلا تضحية سخيفة.

ولكن حدث شيء آخر تلك الليلة، أليس كذلك؟

هبط خافيير السلم وخرج من المنزل متوجهاً إلى حوض السباحة، فخلع قميصه ونزل إلى الماء.

إنها مشاعر الحب التي ولدت في قلبه لسنة خلت وراحت تنمو وتكبر حتى ضاق صدره بها...

سبح في المياه المنعشة وعضلاته القوية متشنجة من شدة الإحباط.

على مدى السنوات الطويلة التي عرف فيها زوي، حركت فيه مشاعر عدة مختلفة، من البهجة إلى السخط والعطف والاهتمام والغضب والغيرة التملكية... مشاعر توجت اليوم بالحب المتقد الخالي من أية شائبة.

كان خافيير يعرف عيوبها، عنادها، وجموحها، كما يعرف نقاط ضعفها، وكرم أخلاقها، ويعشق كل ما فيها: مشيتها.. ابتسامتها... إنها المرة الأولى التي يتعلق فيها بامرأة تعلقاً لن يتمكن أبداً من التخلص منه.

تجهم وجهه وهو يقطع الماء، منفساً عن استيائه من خبثه وأنانيته. فحين طلب يدها للزواج، ادعى أنه يريد زواجاً صورياً، لحمايتها من شيرمان وأمثاله، وأبى أن يعترف جهاراً بأنه يريدها لنفسه، لأنه يحبها!

وها هما الآن في مأزق حرج. يا له من أبله!

كم تمنى أن يمسك بوجهها الجميل بين يديه، فيضمها إلى صدره ويلهب مشاعرها، إلى أن تتقاذفهما أمواج المشاعر العاتية. ولكن عليه أن يتروى قليلاً.

لم يواجه من قبل صعوبة في التودد إلى امرأة تروق له. فقد اعتاد على رؤية النساء يتهافتن عليه، ويسعين إلى إرضاءه بشتى الوسائل، حتى ضاق ذرعاً بهنّ جميعاً! أمّا زوي، فهي تختلف عن النساء الأخريات، وحبه لها يكبر يوماً بعد يوم. عليها أن تتعلم أن تبادله هذا الحب، كي لا تفكر

يوماً بالرحيل عنه.

تأوه خافيير وضاعف سرعة حركات يديه القويتين. أثارت أنانيته الرعب في نفسه. عليه أن يغض الطرف عن رغباته الشخصية في الوقت الحالي، لاسيّما أن امرأته المسكينة حائرة في أمرها، لا تعرف ما إذا كانت حاملاً منه أم لا. فزوي صغيرة في السن، وغير مهيأة بعد لتحمل مسؤوليات الأمومة. وهو لم يغفل عن اضطرابها الشديد عند سماعها رده على سؤالها، حين قال: «لن نغادر إلا في الوقت المناسب».

لقد قصد بقوله هذا، أنهما لن يغادرا المكان قبل أن يتمكن من إيقاعها في حبه. لكن المشكلة الأساسية التي تواجهه هي أن زوي لا تسمح لأي كان بأن يرغمها على القيام بما لا تريده. أحس بأن المأزق الحرج الذي زج فيه نفسه بدأ يأخذ أبعاداً أوسع.

لم تجد زوي للنوم سبيلاً لشدة توترها، وارتأت أن تغرق نفسها في حوض الاستحمام، بعد أن ملأته بالماء الساخن المعطر.

جلست هناك مسترخية تتأمل الجدران الرخامية القشدية اللون، والرفوف الزجاجية المملوءة بأنواع مختلفة من الزيوت والعطور، وأوراق النباتات المعلقة الخضراء. ولم تكد تمر خمس دقائق، حتى دفعتها مشاعرها المشحونة إلى الخروج من الحمام.

ما الذي يفعله خافيير؟

لعله في مكان ما قريب من هنا! إلا أنها لم تلمح له أثراً أو تسمع له صوتاً.

لا شك أنه منغمس في أعماله التي لا تنتهي.

فبالإضافة إلى الأمتعة الكثيرة التي أحضرها معه، لم ينس حقيبة الملفات وجهاز الكومبيوتر المحمول. ولابد أنه يجلس الآن في إحدى الغرف المكيفة، يطلع على مشروع هندسي، في الوقت الذي تحاول فيه زوي إيجاد حل لهذا الموقف الغريب الذي وجدا نفسيهما فيه.

إنه يتمتع بالقدرة اللازمة لإبعاد هذا الأمر عن ذهنه، فلا يضيع وقته سدى في التفكير في مشكلة لا يمكنه حلها قبل التثبت من حلها.

دخلت زوي إلى غرفة الملابس، وهي تلعن نفسها في سرها لأنها عاجزة عن الاقتداء به. فوجدت خزائن كبيرة لتعليق الملابس وأخرى للأدراج إضافة إلى مرآة حائط قديمة...

كانت تيريزا قد أفرغت الحقائب كما قال لها. وتذكرت، في تلك اللحظة، أنه تحدث عن غرفتهما. عقدت حاجبيها، وراح قلبها يخفق بعشوائية. أتراه يتوقع أن يتشاطرا الغرفة عينها؟

عادت زوي وأنبت نفسها بحدة... كوني واقعية ولا تدعي الأوهام تخدعك!

لا شك أنه طلب من تيريزا إفراغ حقائبهما في الغرفة عينها، كي لا يثير شكوكها. تماماً كما طلب منها العودة مع زوجها إلى القرية!

لم يكن والداه يعرفان حقيقة زواجهما، ولم يشأ خافيير أن يعطي تيريزا الفرصة لتهرع إلى والدته، وتخبرها بأنهما ينامان في غرفتين منفصلتين.

طردت زوي هذه الأفكار البائسة من رأسها وراحت تتفحص محتويات الخزائن، فوجدت أن جزءاً منها يضم أمتعتها القليلة، فيما عج الجزء الآخر بأمتعة خافيير الكثيرة، من ملابس رياضية، وسراويل جينز، وقمصان.

حسناً، بدا واضحاً أنه سيستعمل غرفة ملابسها، إلا أنه لا ينوي مشاطرتها سريرها، وسيختار له سريراً آخر ينام فيه. ألم يظهر لها بوضوح انزعاجه الشديد من وجودها قربه، متمنياً في سره لو أنه يستطيع الفرار منها بعيداً جداً؟

أخذت عباءة من الحرير الفيروزي ودست ذراعيها فيها بحدة، ثم عقدت الحزام على خصرها بإحكام!

يا له من رجل بغيض!

كيف وقعت في حب شخص فظ مثله؟

ألا يمكنه أن يراعي مشاعرها أبداً؟

وسرعان ما ظهر ذلك الفظ المستحوذ على أفكارها عند باب غرفة الملابس...

أحست زوي بثقل وجوده يزعزع كيانها، فاستدارت نحوه وعباءتها الحريرية الناعمة تشد قامتها شداً. وأسرعت الحمرة تعلو خديها وهي تتأمله في بنطلونه القصير، وبشرته المبللة اللامعة، وشعره الداكن القصير الملتصق برأسه!

فجأة، رأت التوتر يعلو قسماته، وضاقت عيناه كأنه مستاء من رؤيتها. غير أن ذلك التوتر ما لبث أن اختفى، ورماها بابتسامته الباردة المعهودة.

وقبل أن يتسنى له الاسترسال في مزاحه السخيف، بادرت زوي إلى الكلام، كي لا يدرك كم كان تكلفه يهز مشاعرها:

- كنت تسبح؟ يا لها من فكرة رائعة!

وفتحت أحد الأدراج، مطلقة تنهيدة امتنان وهي ترى في داخله ثوب السباحة المفضل لديها. ارتدته على عجل وأسرعت تغادر الغرفة وعلى ثغرها ابتسامة ما لبثت أن تحولت إلى نحيب، مع بلوغها الرواق الخارجي.

٧ ـ قلبي ليس من حجر

استيقظ خافيير باكراً كعادته، وتحولت أفكاره في الحال إلى زوي النائمة في الجناح الرئيسي، في الجهة الأخرى من الڤيلا.

مضت خمسة أيام على وجودهما في هذا المكان، ولم يحرز بعد أي تقدم ملموس لتحقيق خطته المنشودة، وإقناعها بالمستقبل الباهر الذي ينتظرهما.

في الواقع، كان خافيير يعاني من الارتباك الشديد، بعد أن فقد كل أثر لزوي التي عرفها. زوي الثرثارة، المرحة، المشاكسة، التي تنبض بالحياة، وتجيد خداعه.

أما عزمه العنيد على جعلها تغير رأيها بشأن إبطال زواجهما، من خلال معاملتها برقة، والاهتمام بها، ومراعاة مشاعرها كاتباً كل ميوله الشخصية، ومحاولاً إشعال فتيل حبها القديم له، فلم يأت بنتيجة فعالة.

على الرغم من محاولاته الحثيثة لجعل إجازتها في إسبانيا ممتعة، جوبه خافيير بحائط صلب من الآجر.

فكلما اقترح عليها الخروج معاً، فوجىء برؤيتها تخفض رموشها وتهز برأسها الذهبي الشعر بصمت.

يبدو أن السحر انقلب هذه المرة على الساحر. فزوي فضلت الانزواء، خلال ساعات النهار، في المنزل الصيفي الصغير في الحديقة، تقرأ كتاباً أو مجلة، ولا تجيب عن سؤاله عما يزعجها، إلا بعبارة واحدة مقتضبة: لا شيء.

إنها المرة الأولى التي يخذله فيها أحدهم. أخذ خافيير يفكر ملياً في هذه التجربة الجديدة التي يمر بها، وهو واقف تحت الماء البارد، كما اعتاد أن يفعل كلما وقعت عيناه على ملهبة حواسه. وأخيراً قرر أن يضع حداً لهذا الفتور في تعاملهما مع بعضهما البعض.

في الماضي، كانت زوي تقضي ساعات طويلة وهي تسامره، وتحدثه في مواضيع شتى. وعلى الرغم من نفور خافيير من ثرثرة النساء، إلا أنه كان يجد ثرثرة زوي مختلفة، ويستمتع بكل كلمة تقولها.

ما السبيل إلى جعلها تعود إلى سابق عهدها، فتفضي إليه بمكنونات قلبها، وتفصح له عما يزعجها؟

أيعقل أن تكون مريضة؟

أثارت هذه الفكرة الرعب في نفسه فأسرع يرتدي ملابسه ويغادر الغرفة.

لم تغفل عينا خافيير عن الظلال السوداء حول عينيها الجميلتين، وشحوب وجهها المثير للقلق، وفقدانها المفاجئ للشهية.

حاول أن يسيطر على أعصابه، وقد تجلت له حقيقة توعكها كالسيف القاطع. إنها تخشى أن تكون حاملاً!

تسمر خافيير في مكانه عند أسفل الدرج الذي نزله منذ دقائق قليلة بتهور...

الذنب ذنبه وحده.

كانت زوي ترغب بالرحيل، لقد قالت له ذلك صراحة، تريد الابتعاد عنه لتبدأ حياة جديدة وتبني صداقات كثيرة. لكن الحمل سيقضي على خططها كلها ويفقدها حريتها.

صعد الدرج من جديد وقد وجد حلاً للمشكلة... عليه أن يطمئنها ويزيل قلقها ومخاوفها في الحال. فمع أن مسألة الطلاق ليست مطروحة

للبحث، لكن إن تبين أن زوي حامل، سيحرص على أن يؤمن لها أفضل عناية طبية، من دون أن يهمل تدليلها والاهتمام بها.

وبعد ولادة الطفل، سيعهد أمر الاعتناء به إلى مربيات محترفات، يستخدمهنّ لهذه الغاية، تاركاً لها حرية التحرك والاستمرار في ممارسة الأعمال الخيرية.

كان خافيير يتمنى من كل قلبه أن يمارس دوره كأب، فيحيط ذلك الطفل بحنانه وعطفه. لكن مهما كانت آماله وتطلعاته، عليه أن يضع مصلحة زوي في المرتبة الأولى. إذ لا يمكنه أن يقف مكتوف اليدين، والقلق يكاد يسقم حبيبة قلبه.

خرجت زوي من الحمام ولفت المنشفة حول جسمها، وقد عقدت العزم في سرها على إخبار خافيير بالحقيقة ليطمئن باله.

لم يعد بوسعها تأجيل الأمر، بعد أن احتفظت بالخبر لنفسها، على مدى خمسة أيام بكاملها. فهذا ليس عدلاً!

إنها تعي ذلك تماماً، وتشعر بالاشمئزاز من تصرفها الخبيث الذي لم تعتده من قبل.

لمحت صورة وجهها البائس في المرآة، فأشاحت بنظرها بعيداً، كي لا ترى الهالات السوداء المحيطة بعينيها، وشحوب وجهها الشديد.

كانت الأيام الأخيرة مضنية. إذ عاملها خافيير برقة بالغة، فكان صبوراً، وحنوناً، لا يتأفف أبداً كلما رفضت مرافقته للسباحة أو للإبحار، أو لتناول الطعام في مطعم محاذي للرصيف اشتهر بأطباقه اللذيذة!

اغرورقت عيناها بالدموع وهي تتذكر لطفه البالغ وهو يسألها عما يزعجها، وقد أذاب الاهتمام البادي في عينيه الضبابيتين قلبها... ففتحت فمها تريد أن تكشف له عن سرها، إلا أن وصول تيريزا حاملة المؤون اليومية، حال دون ذلك.

لن تنجب طفلاً منه...

علمت زوي ذلك منذ الليلة الأولى التي وصلا فيها إلى هنا، ولكنها أخفت الأمر عنه وقد اجتاحتها مشاعر مريعة وغريبة.

كانت تتمنى من كل قلبها أن تنجب طفلاً منه، وخاب أملها كثيراً، حين أدركت أنها ليست حاملاً. لن يرضى خافيير بالطلاق لو كانت حاملاً، حرصاً منه على مصلحة الطفل، وليس بدافع حبه لها أو اختياره لها كشريكة حياته! فهي تعرف حق المعرفة طريقته في التفكير. ومن المؤكد أنه سيمضي على جرحه، ويؤدي واجبه تجاهها على أكمل وجه.

لكن أتراها قادرة على تحمل نظرات النفور في عينيه، بعد أصبحت عبئاً ثقيلاً جداً عليه؟

ما إن تزف إليه الخبر السعيد، حتى يتنفس الصعداء، وتعود الأمور إلى نصابها. وبعد أقل من سنة، تبلغ زوي سن الرشد، وتصبح مؤهلة لاستلام ميراثها. عندئذٍ تنتهي مهمته، ويبطل زواجهما في الحال، ليعانق حريته التي افتقدها طوال هذه الفترة!

ما سر هذه المشاعر المتضاربة التي تمزقها وتجعلها على حافة الانهيار؟

سترتدي ملابسها بسرعة، وتذهب بحثاً عنه لتعترف له بسرها، لتقف، بعدئذٍ، وتتأمل الابتسامة العريضة التي ستظهر على ثغره من شدة الارتياح، وآمالها العزيزة تتحطم أمام ناظريها على صخور النسيان! آمال شقت طريقاً ملتوية لتبلغ ذهنها المضطرب، خلال الأيام القليلة الماضية التي عاملها خلالها بلطف.

لم تكن تحتاج إلى لطافته التي تذكرها بمعاملته لها خلال طفولتها. إنها اليوم امرأة راشدة، وتحتاج إلى أكثر من ذلك بكثير. ولا تخاله على استعداد لمنحها ما تريده.

خرجت زوي من الحمام، وهي تشعر وكأنها ستواجه زمرة مكلفة بتنفيذ حكم إعدامها رمياً بالرصاص.

وفي تلك اللحظة، فتح باب الغرفة وأطلّ منه حب حياتها، وعلى وجهه إمارات التصميم العنيد.

ذعرت زوي وجف حلقها، فأمسكت بطرف منشفتها، واستجمعت ما تبقى من شجاعتها، وقالت له بصراحة مطلقة: «لست حاملاً!».

بدا خافيير، للوهلة الأولى، مصعوقاً. وازدادت عيناه حدة، ولم يظهر فيهما أي أثر لخيبة الأمل. وما لبث أن رماها بابتسامة دافئة، أضاءت قسمات وجهه الساحرة.

أقرت زوي في سرها بأن ابتسامته تنم عن ارتياحه العميق، فالواجب لن يناديه بعد اليوم. وسيتخلص، بعد سنة من الآن، من الحبل الملفوف حول عنقه ويكاد يخنقه.

من جهته، شعر خافيير بخيبة الأمل، إلا أنه أخفى مشاعره عنها كي لا تخاله أنانياً، لا يفكر إلا بنفسه. كان يتوق لرؤيتها تحمل طفله بين ذراعيها، لكن الاضطراب الذي أصابها، لشدة خوفها من الحمل، جعلها على شفير المرض. لابد أن بالها ارتاح الآن، ولن تلاحظ خيبة أمله.

أرغم نفسه على الابتسام وهو يتقدم نحو حبيبة قلبه المسكينة، التي لفت منشفة كبيرة حول جسمها، وشعرها الذهبي يتدلى بفتنة على كتفيها العاريتين كأنه هدية ثمينة تنتظر من يفتحها.

قال لها بحرارة، وقد بدا صوته أجش بشكل غريب: «عليك أن تكفي الآن عن القلق. أعلم جيداً أنك ذقت الأمرين!».

كلا! لم يكن يعرف شيئاً!

- تأكدت من الأمر منذ خمسة أيام، فلا تدعي أنك تجيد قراءة أفكاري.

أحست زوي بالاشمئزاز من ابتسامة الارتياح التي ظهرت على ثغره،

بعد أن انزاح العبء الذي كادت عروسه وعزة نفسه أن تفرضاه عليه لبقية عمره. وكم كرهت نفسها حين عجزت عن تمالك أعصابها، وأجهشت بالبكاء أمامه. أسرع خافيير يغمرها بذراعيه، ويده تضغط على رأسها بخفة، ليرتاح على كتفه، وهو يقول: «لا عليك، يا حبيبتي. لا أتحمل رؤيتك تبكين، فدموعك تمزق قلبي».

بدت نبرة صوته رقيقة حنونة، وأحست زوي كأن الزمن عاد بها عشر سنوات إلى الوراء.

فأبعدت رأسها عن كتفه الصلب المريح، وراحت تضرب صدره العريض بقبضتيها، صارخة بحدة: «لم أعد في الثامنة من عمري... لا تعاملني كأنني طفلة... أظنك ستعدني بأن تشتري لي المثلجات إن مسحت دموعي ونظفت أنفي».

وسرعان ما أدركت أنها قست عليه كثيراً، فالرجال لا يستمتعون برؤية النساء يذرفن الدموع. وجلّ ما حاول المسكين أن يفعله هو التخفيف من انتحابها. غير أن ذلك لم يمنعها من شن هجوم آخر على صدره القوي، محاولة جهدها الابتعاد عنه.

لم يكترث خافيير لمشاكستها وشدها أكثر إلى جسمه الذي لا يلين، وعلى ثغره ابتسامة خبيثة: «هل ألعب الدور حتى النهاية وأقبلك؟».

حبست زوي أنفاسها، والتقت عيناها المتسعتان بعينيه المليئتين بالرقة، وقد جف حلقها، وأحست برعشة في جسمها. شعرت أن العالم توقف عن الدوران، بينما استرخت قبضتاها شيئاً فشيئاً لتستقر راحتا كفيها على قماش قميصه الناعم، تتحسسان نبضات قلبه المتسارعة.

في تلك اللحظة، شدها خافيير إليه معانقاً، زارعاً الفوضى في أحاسيسها ومزعزعاً كيانها. دست ذراعيها النحيلتين حول عنقه، وسمحت يتأوه، فيما راحت يداه تجولان على ظهرها.

تشابكت أصابع زوي بين خصلات شعره الكث، وقد شتت عناقه

أفكارها وشوش ذهنها. حتى إنها بالكاد سمعته وهو يسألها بصوت مخنوق: «أهذا ما تريدينه؟ عليك أن تكوني واثقة... أجيبي... فأنا لست من حجر».

حدقت في عينيه المتقدتين الداكتين. كان شوقها إليه أقوى من قدرتها على المقاومة. فألصقت جسدها بجسده بإرتياح، وإذا بموجة من الغبطة تغمرها وقد أطبق ذراعيه حولها كقضبان من حديد، وعانقها من جديد بحرارة وشوق.

خانه جسده مفشياً سر توقه الشديد إليها، ذلك التوق الذي أخفاه طويلاً خلف ستار خادع من اللامبالاة... توق استجاب كيانها له استجابة غريزية.

- زوي!

ورفع رأسه مدركاً أن صوته بدا خشناً مثيراً للأعصاب. فتلك العفريتة الصغيرة تفقده صوابه، كي لا يتمكن من الإمساك بزمام الأمور.

أمسك برأسها بين يديه مطلقاً العنان لأصابعه الطويلة لتداعب شعرها الذهبي المحيط بوجهها المتوهج. يا له من إطار جميل لعينيها المتلألئتين، ذات الأهداب الطويلة، وخديها البارزين وشفتيها الممتلئتين!

عاد يناديها باسمها، محاولاً استرجاع شيء من رباطة جأشه. أدارت زوي رأسها لتطبع قبلة على راحة يده. لم تكن قادرة على احتمال النيران التي أشعلها في داخلها، إلا أنه طبع قبلة سريعة على جبينها.

- سأعود في الحال!

قال لها ذلك وهو يحاول التقاط أنفاسه. عليه أن يتصرف قبل أن يفقد القدرة على التفكير بشكل سليم.

- لن أعرضك هذه المرة لخطر الحمل.

مدت زوي يديها لتحتضنه، والكلمات تتدافع في حلقها. أرادت أن

تقول له إنها تتمنى من كل قلبها أن تنجب طفلاً منه. ولكن الفرصة لم تسنح لها، إذ اخترق صوت أنثوي الجو المشحون بينهما فسمرتهما الصدمة مكانهما مذهولين.

ولم تكد تمر ثوانٍ قليلة، حتى أطلق خافيير شتيمة بلغة غريبة، أدركت زوي أنها الإسبانية، قبل أن يقول: «إنها أمي!».

وتعالى صوت نقر حذاء ذي كعبين عاليين على الأرضية الخشبية المصقولة.

- خافيير؟ تيريزا؟ هل من أحد هنا؟

أسرعت زوي تلف المنشفة بإحكام حول جسدها قبل أن يُفتح الباب وتطل إيزابيلا ماريا منه، مرتدية بذلة حريرية زرقاء، وعلى ثغرها ابتسامة مشرقة: «ها أنتما! أردنا أن نفاجئكما».

أجابها خافيير بفظاظة، وقد أخذ توهج خديه يتلاشى شيئاً فشيئاً: «أحسنت اختيار التوقيت، كالعادة، يا أمي».

وألقى بذراعه حول كتفي زوي، فيما استطردت إيزابيلا ماريا كلامها من دون أن تعير تهكمه انتباهاً: «جيد! قال لي والدك إن زيارتنا ليست في محلها، فأجبته: لا تكن غبياً، انتهى شهر عسلهما منذ فترة طويلة، ولن يتزعجا من تطفلنا عليهما. أتدركان أننا لم نتقابل منذ سنة كاملة؟».

- أحقاً؟

جاءت نبرة صوته أكثر جفافاً من هواء الصحراء، وعاد يقول: «هلا عذرتنا يا أمي؟ كنا على وشك الدخول للاستحمام. أليس كذلك يا عزيزتي؟».

كبتت زوي ضحكة كادت أن تفلت منها، وأومأت برأسها موافقة. ثم جاهدت نفسها كي لا تنفجر بالضحك، وهي تسمعه يملي على والدته التعليمات اللازمة: «أعدي لنا طعام الفطور يا أمي. كنا نتدبر أمرنا

جيداً، ولكننا سندعك تتولين الأمر بما أنك هنا».

وتقدم نحو إيزابيلا ماريا ودس يده تحت ساعدها، ثم رافقها إلى الباب وأقفله وراءها. التفت بعدئذٍ نحو زوي يدمدم مازحاً:

- ماذا يسعني القول؟.

- إنك ستضع أقفالاً على الأبواب!

بدت ابتسامتها مرتعشة، وقد أحست بالإحباط يسري في عروقها ويفتت عظامها. أجابها وقد ظهرت عند طرف فمه ابتسامة خبيثة: «إنها فكرة جيدة!».

وسارع يلملم شتات نفسه ويتوجه نحو الحمام قائلاً: «سآخذ حماماً بارداً بينما ترتدين ملابسك».

- انتظر يا خافيير!

لحقت به وقد عقدت عزمها على ألا تدعه يذهب قبل أن تضع النقاط على الحروف...

كيف ينظر إلى مستقبلهما معاً؟ هل سينهي زواجهما مع انتهاء الفترة الزمنية التي حددها منذ البداية؟

- لا يمكننا الادعاء بأن شيئاً لم يحصل.. علينا أن نتحدث...

تسمر في مكانه، وتحولت عضلات ذراعه تحت اليد التي أطبقت عليها لترغمه على البقاء، إلى قضبان من حديد. فسلمت زوي بصمت يائس بأنه لم يعد يرغب بلمسها.

فجأة تلاشى الاحمرار الذي علا خديها للحظات خلت، واستعادت بشرتها شحوبها وشفافيتها. كانت جميلة جداً وتجاوبها معه بكليتها أفقده صوابه...

ما الذي تلمح إليه؟ أتريد القول أن علاقتهما الجسدية لن تثنيها عن الرحيل؟

لابد من أن يتحدثا معاً، لكن زيارة والديه المفاجئة، قضت على الفرصة التي كان يتنظرها.

كبح خافيير انزعاجه من هذه العقبات الخارجة عن إرادته، التي اعترضت خطته بجعل زوجته مدمنة على حبه، وأرغم نفسه على القول لها برقة: «ستتحدث معاً هذا المساء، أعدك بذلك. لكنني لست واثقاً الآن من أن والدتي لن تعود إلى هنا لاهثة مذعورة».

تأججت في أحشائه نيران الاحباط، إلا أنه تمكن من طبع قبلة سريعة على جبينها، وقال: «لم تضطر والدتي يوماً إلى تحضير الطعام بنفسها. وأظنها الآن واقعة في حيرة من أمرها، لا تعرف كيف تحمص الخبز. ولا شك أنها سترجع مسعورة لتسألني عن تيريزا».

أفلتت زوي ذراعه، وكل خلية من خلايا جسمها تنبض بذكرى ما حصل بينهما قبل أن تفاجئهما إيزابيلا ماريا بحضورها. كانت تظن أن الانجذاب الجسدي والحب متساويان، لكن ظنها لم يكن في محله.

توجهت إلى غرفة الملابس بخطى ثقيلة. خطى تدل على فقدانها الحماسة، وقد أظهر خافيير استخفافه بما حصل.

ولا شك أن مقاطعة والدته لهما سببت له ارتباكاً جسدياً بسيطاً. صحيح أنه وعدها بأن يتحدث في الموضوع هذا المساء، لكن زوي لم تكن واثقة من أن كلامه سيروق لها.

٨ ــ شهر عسل مؤجل

- دعيني أهتم بالأمر يا أمي.

وأخذ إبريق القهوة من يدي إيزابيلا ماريا النحيلتين البيضاوين.

كان خافيير قد استحم وارتدى ملابسه على عجل، لينزل إلى المطبخ قبل زوجته. إذ لم يشأ أن يطلب من والديه الرحيل في حضورها.

- لا يمكنك وضعه فوق الموقد مباشرة ليغلي!

ولم يحاول أن يخفي سخطه المشوب بالعطف وهو يضيف قائلاً: «إنك أسوأ من طفلة في الثانية من عمرها، في الأمور المنزلية!».

وأفرغ الغلاية من الماء البارد وثقل القهوة المشبع بالماء، فيما هزت إيزابيلا ماريا كتفيها لامبالاة، ورفعت عينيها إلى الأعلى قائلة:

- ولِمَ تريدني أن أتعلم التدبير المنزلي؟

كان سؤالها أشبه بمحاولة للدفاع عن النفس.

- إنني استخدم أشخاصاً للاهتمام بهذه الأمور. بالمناسبة، أين تيريزا؟

- قلت لها إنني لا أحتاج إلى خدماتها، شرط أن تجلب لنا يومياً المأكولات الطازجة. فهدفنا الأساسي من هذه الإجازة هو تمضية بعض الوقت بمفردنا.

غلت المياه في الغلاية، فصب الماء الساخن فوق القهوة، وقد اجتاحته رغبة جامحة بالتمادي في الكلام أكثر، إلا أنه عاد واكتفى بتلك الإشارة

البسيطة.

وقف ليونيل ماسترز عند عتبة الباب المؤدي إلى الشرفة الفسيحة، يستمع إلى حديثهما، وعلى ثغره ابتسامة ملتوية، فتدخل قائلاً: «ألم أقل لك إن زيارتنا ليست في محلها؟».

- ابني الوحيد لا يرغب برؤية والدته!

وظهرت في عينيها السوداوين إمارات الازدراء، بينما استراحت يدها المداعبة على خد خافيير البرونزي!

- لا تتفوه بهذه الحماقات يا زوجي العزيز، فزيارتنا لن تطول أكثر من يومين أو ثلاثة. علاوة على ذلك...

ومضت عيناها بوميض التأنيب، وهي تتابع قائلة: «أحمل رسالة خاصة لخافيير. ألا تذكر؟».

وقبل أن يتسنى لليونيل الإجابة، نفياً أو إيجاباً، على سؤالها، أعلنت إيزابيلا ماريا بتعجرف: «تلقيت اتصالات هاتفية من صديقة لك، قالت إنها تدعى غليندا هافرز. بدت مصرة على التحدث إليك، فحاولت الاتصال بإيثيل و جو في واكهام. إلا أنهما رفضا إبلاغها بمكانك، نزولاً عند طلبنا. فاتصلت عندئذٍ بشقتك وبمقر الشركة في لندن، لكنها لم تلقَ جواباً، لأنك لم تطلع أحداً هناك على وجهتك. وفي نهاية المطاف، قررت الاتصال بي أنا، والدتك».

ووضعت يدها على صدرها بطريقة مسرحية واستطردت تقول: «لم أبلغها بمكانك، وكنت شديدة التحفظ معها. إلا أنني وعدتها، على مضض، بأن أبلغك الرسالة».

هزت إيزابيلا ماريا رأسها استهجاناً وأضافت: «لِمَ هذا الإصرار على التحدث إليك في أقرب فرصة ممكنة؟ من المفترض بكَ أن تقطع صلتك بأمثالها... فأنت رجل متزوج».

حبست زوي أنفاسها وهي واقفة خلف الباب، تسمع كل كلمة تفوهت بها والدته...

تأخرت زوي في النزول من غرفتها، بعد أن أمضت وقتاً طويلاً هي تحاول أن تختار ثيابها. كانت مصممة على أن تبدو في أبهى حلة، لتتمكن من مواجهة ساعات النهار الطويلة بشجاعة. فعليها أن تحافظ على رباطة جأشها لتتقبل قراره بشأن زواجهما برحابة صدر.

لن ترضى هذه المرة بأن يشبع جوعها إليه جسدياً، من دون أن يشبع فضولها بالرد على أسئلتها!

انه رجل يتمتع بكامل عافيته ورجوليته، فلمَ لا يستغل زوجته المتهاونة معه؟ غير أن ذلك لا يعني مطلقاً انه ينوي الارتباط بها طوال العمر.

على غرار الكثير من الرجال، يمكنه الاستمتاع بعلاقة عابرة تشبع رغباته، من دون أن يتورط في علاقة حب جدية.

وبعد الكلام الذي سمعته منذ قليل، بلغ تشنج أعصابها أوجه. ليتها دخلت إلى المطبخ مباشرة، من دون أن تتسكع هنا وهناك. لو فعلت ذلك لوفرت على نفسها المزيد من الاضطراب. ألا يقال إن الجهل نعمة من الله؟

غليندا... غليندا هافرز... كانت زوي تعرف أن تلك السمراء الجذابة، بقيت على علاقة بخافيير مدة طويلة، قبل أن يمل منها ويبحث عن طريدة جديدة. ولا يمكنها القول أن مرد ذلك إلى إذعانها لمشيئته، وموافقتها على مرافقة زوي خلال الرحلات التي وعدها بها.

هل كانت غليندا هافرز تحتل مكانة مميزة في قلبه؟ أهي ضحكة غليندا التي سمعتها عبر الهاتف، حين اتصل خافيير بها من غرفته في الفندق، خلال وجوده في كان؟

أتراها ترافقه دوماً في رحلات العمل التي يقوم بها؟

ولمَ إصرارها على التحدث إليه؟ ألأن علاقتهما التي ترقى إلى زمن بعيد، باتت وثيقة جداً، ولم تحتمل أن يبتعد عنها لأكثر من يوم أو يومين؟

أسئلة كثيرة، ولا جواب لها...

أخذت زوي نفساً عميقاً، وأغمضت عينيها قليلاً وهي تبتلع ريقها بصعوبة.

ستطالبه لاحقاً بهذه الأجوبة... لكن أتراه سيقول لها الحقيقة؟

أتراه سيقول لها ما تخشى أن تسمعه؟ هل سيبلغها أنه ينوي، بعد سنة من الآن، إبطال زواجهما، ليرتبط بعشيقته التي انتظرته سنوات طويلة؟

وهل هي قادرة على تحمل هذا الكلام؟

شدت كتفيها إلى الخلف ورسمت ابتسامة على ثغرها، ثم دخلت المطبخ لتجد خافيير يحمص الخبز، وليونيل يضع أواني الخزف، والفاكهة والعسل على صينية بغية حملها إلى الشرفة.

أما إيزابيلا ماريا فكانت تشرف على عملهما بتكاسل...

- زوي! كم تبدين فاتنة! ليتني أستطيع ارتداء اللون الزهري، ولكنني أبدو شاحبة فيه. أتعلمين شيئاً؟ إنني أشعر بالغيرة. فحين كنت في مثل سنك، لم يُسمح لي بارتداء ثوب صيفي مثير كهذا. صحيح أن الزمن يتغير نحو الأفضل!

رضخت زوي لتقييم حماتها لملابسها بابتسامة استفهام.

أتراها تعتبر فستانها الصيفي ذا الحمالات، الذي يشد قامتها شداً ويتهي بتنورة قصيرة متماوجة، مثيراً؟ وهل يوافقها خافيير الرأي؟

أوحت إليها الابتسامة المقتضبة التي رماها بها، فيما كان يرتب الخبز المحمص في الطبق، أن لجنة الحكم تختلف معها في هذا الشأن.

أمسكت إيزابيلا ماريا بيد زوي قائلة: «تعالي نجلس على الشرفة، ونترك رجلينا يهتمان بالأعمال الروتينية التي لا أصلح لها!».

عند وصولهما إلى الشرفة المغمورة بأشعة الشمس، راحت المرأة تفضي إليها بمكنونات قلبها: «يقال إن المطبخ هو قلب المنزل أو محركه. لا أعرف رأيك في الموضوع، ولكنني أفضل ألا أتدخل في هذه الأمور».

ثم سوت تنورتها الضيقة، وجلست إلى الطاولة الموضوعة تحت مظلة كبيرة، تستظل من أشعة الشمس الحارقة.

- قال لي ابني إنه استغنى عن خدمات تيريزا لتنعما بالوحدة. هل يعني ذلك أنه ثمة مشاكل بينكما؟

ورمتها بنظرة ثاقبة تتعارض مع الابتسامة التي تظهر على وجهها، ثم تابعت تقول: «هل ابني سعيد معك؟ تفضلي بالجلوس...».

وأشارت إلى الكرسي المجاور لها: «وأخبريني كل شيء».

أخذت زوي نفساً عميقاً، فامتلأت رئتاها بالهواء العابق برائحة الياسمين. لم تكن مهيأة للإجابة على سؤال مماثل، فارتمت في الكرسي، وضمت يديها برزانة في حضنها، ثم ردت على سؤالها قائلة: «قلت لي يوم زفافنا، إنك سعيدة لأن ابنك أخذ بنصيحتك وتزوج بي. هل تذكرين؟».

لم تمعن التفكير يومها في كلامها، ولكنها بدأت الآن تتساءل عن السبب الحقيقي وراء زواج خافيير... هل كان يريد حقاً أن يبعدها عن الطامعين بمالها إلى أن تبلغ سن الرشد وتصبح مؤهلة لاتخاذ القرارات بنفسها؟

اخترقت ضحكة المرأة الرنانة سكون الصباح المثير للنعاس. ثم قالت: «طبعاً يا عزيزتي! كيف لي أن أنسى أن ابني العنيد أخذ بنصيحتي للمرة الأولى في حياته؟ فبعد تفكير ملي وطويل، أدرك أنني كنت محقة».

أحست زوي وكأن سكيناً أغمدت في قلبها، فسألتها بصوت مخنوق: «ما الذي قلته له؟».

- طلبت منه الزواج بك، لأنك وريثة ثروة هائلة.

وأطلقت ضحكة أخرى رنانة أثارت اشمئزاز زوي. اشمئزاز هدد بأن يتحول إلى صداع أليم.

دنت إيزابيلا ماريا منها تعترف لها بصوت هامس قائلة: «منذ بلوغه الثامنة عشرة من عمره، وخافيير يجذب نساءً لا يأبهنّ إلا بشكله الخارجي. فهو وسيم جداً ويتمتع بجاذبية فتانة، إلى جانب ثروته الكبيرة. ما يجعل منه فريسة مثالية لكل امرأة تبحث عن صيد سمين!».

وهزت كتفيها استهجاناً وتابعت تقول: «وعلى غرار كل أم تخاف على مصلحة ولدها، تمنيت أن أراه سعيداً، مستقراً، ومحاطاً بالأولاد. لكنني كنت أخشى أن يتعلق بفتاة بغيضة، لا يهمها إلا رصيده في المصرف. وبغض النظر عن المثل القائل، إن الثروة تجر الثروة، كنت واثقة من أنك لن توافقي على الزواج به، إلا لأنك تحبينه لشخصه».

- لطالما أحببته لشخصه!

خرجت تلك الكلمات من فمها من دون أن تعي ذلك، وكأنها فقدت كل سلطة لها على لسانها...

- وهو يعبدك!

أعلنت المرأة ذلك معتدة بنفسها، ثم تابعت تقول: «قرأت ذلك في عينيه يوم زفافكما!».

أخفضت زوي عينيها وقد أخذت شفتاها ترتعشان؛ حماتها لا تعرف شيئاً. ولم ترَ إلا ما كانت ترغب برؤيته.

فالإحساس الذي خالج خافيير يوم زفافهما كان نابعاً من شفقته عليها. شفقة ترقى إلى سنوات بعيدة، ظهرت يوم التقى بتلك الطفلة اليتيمة التي تحولت إلى مراهقة مشاكسة، فخشي أن تضل الطريق الصحيح في صباها.

لن تسيء زوي الظن في خافيير، وتصدق قول أمه إنه تزوج بها طمعاً بمالها. صحيح أن البعض يعتبرها وريثة ثروة ضخمة، إلا أن الطمع ليس من شيم زوجها.

وسمعت إيزابيلا ماريا تقول لها بمكرٍ: «أنتظر ولادة حفيدي الأول بفارغ الصبر».

جاهدت زوي نفسها كي لا تجهش بالبكاء، فخافيير لا يريد أولاداً منها. وابتسامة الارتياح التي أضاءت وجهه حين زفت إليه الخبر السعيد، خير دليل على ذلك.

خرج الرجلان إلى الشرفة حاملين الأطباق التي وزع عليها الطعام، فقاطعا حديثهما الثنائي الذي بدأ يزعج زوي.

ولم يكد الرجلان يضعان الأطباق على الطاولة، حتى قال خافيير: «أرجو أن تعذروني قليلاً، أريد إجراء مكالمة هاتفية».

وأسرع يدخل إلى الڤيلا.

أيريد الاتصال بغليندا ليخفف عنها؟

هل سيقول لها إنه اشتاق إليها أيضاً، وإنه اضطر للسفر إلى إسبانيا مع زوجة لا تعني له شيئاً، ويعتبرها عبئاً ثقيلاً عليه، ولكنه يخشى أن تخرج عن طوعه، وترحل بعيداً، قبل أن تصبح مؤهلة للاعتناء بنفسها؟ وهل يجرؤ على الاعتراف لها بخيانته ومطارحة زوجته الغرام؟

طردت زوي هذه الأفكار المجنونة من رأسها، كي لا تجعل من نفسها سخرية أمام الآخرين. وراحت تصغي إلى الجدال القائم بين والدي زوجها.

- ولكننا وصلنا للتو! ألا يحق لي تمضية بعض الوقت مع ابني؟ أرفض التصديق أن خافيير...

- إيزي...

قاطعها زوجها بحدة وهو يرمي زوي بنظرة اعتذار: «لا تكوني عنيدة. سنمضي النهار برفقتهما، ونغادر مساءً إلى الميريا. حجزت غرفة لنا في الفندق. قال لي خافيير إنه لم يتسنَ له بعد الزفاف أن يصطحب زوي في رحلة شهر عسل».

دمدمت زوي معتذرة، وتركت الطاولة شاحبة الوجه، من دون أن تمس طعامها. أحست بضيق شديد في صدرها ولم تقدر رجلاها الواهنتان على حملها أبعد من الدرابزين الحجري. فاتكأت إليه تتأمل بعينين شاردتين، المرجة الفسيحة المشذبة والحديقة الغناء خلفها، والخليج الصغير، حيث كانت الأمواج الخفيفة تتكسر بهدوء على الرمال البيضاء الناعمة.

كانت تعلم أن خافيير يحب والديه كثيراً، ومن البديهي أن يرحب بهما بحفاوة. غير أن شهر عسلهما المزعوم، في هذه البقعة الرائعة من العالم، ليس طبيعياً على الإطلاق.

فبينما كانت تتبادل أطراف الحديث مع إيزابيلا ماريا، لفق قصة رومنسية حول رغبته بأن ينعم بالوحدة مع زوجته... لماذا؟

ألان زواجهما أشرف على نهايته، ولا يريد أن يكون والداه حاضرين حين يبلغها بموافقته على طلبها السابق بإبطاله؟

أم لعله يريد أن يحول هذه الإجازة إلى شهر عسل حقيقي؟

كادت زوي تصدق ذلك، بعد ما حصل بينهما هذا الصباح. لكن علاقته المريبة بغليندا، وحديثهما الطويل على الهاتف، مسح هذه الفكرة من رأسها.

احتارت في أمرها، وحاولت سدى أن تلملم شتات نفسها.

فالأمر الوحيد الذي كانت متأكدة منه، هو أنها تعشقه وتتوق توقاً شديداً إلى حبه... حب لن يتمكن أبداً من منحها إياه.

- كم مرة قلت لك ألا تقفي تحت الشمس من دون قبعة؟

تقلصت عضلات معدتها عند سماعها صوته. وإذا بيده تمسك بكتفيها وتديرها نحوه، لتتلاقى عيونهما. إنه أكثر وسامة من أي رجل قابلته في حياتها، ولا شك أن النساء يقعن أسيرات سحره...

- عودي إلى الظل! هل تناولت فطورك؟

عاد يعاملها كطفلة صغيرة تفتقر إلى الذكاء. لكن النظرات المخيفة اختفت من عينيه، لتحل محلها ابتسامة جميلة. يبدو أن حديثه مع غليندا كان مثمراً.

سلمت زوي في سرها، بأن الوقت ليس ملائماً للحديث عن عشيقته السابقة أو الحالية. فأصغت باهتمام إلى عبارات الاعتذار الذي انهال بها عليها، وهو يرافقها إلى الطاولة الموضوعة في الظل.

- يمكنك القول إنني طردت والديّ بطريقة لبقة، وعلينا أن نجعل نهارهما ممتعاً للتعويض عليهما.

لاشك أن الأسباب الكامنة التي كانت وراء قراره بطرد والديه العزيزين على قلبه، بالغة الأهمية.

أتراه يريد أن يطرد زوجته من حياته بمنأى من الناس؟

أم أتراه يريد أن يطارحها الغرام بشغف وبلا توقف؟

كم تمنت زوي لو أنه يفعل ذلك!

بعد غداء استمر طويلاً في المطعم المحاذي للرصيف، الشهير بأطباقه الشهية، عاد الجميع إلى الڤيلا، وجلسوا باسترخاء على الشرفة. وإذا بهدير طائرة مروحية يخترق السكون الذي خيم عليهم.

صرخت إيزابيلا ماريا ذعراً، لدى رؤيتها الطائرة تحط فوق المرجة الممتدة تحت الشرفة: «هل نتعرض للغزو؟».

- هدئي من روعك يا أمي.

وهب خافيير واقفاً من مكانه، وهو يتابع قائلاً: «إنها الطائرة المروحية الخاصة بالشركة، ألم تري العلامة؟».

أحست زوي بالفضول يتآكلها، ويحل محل التوتر الذي لازمها منذ الصباح، وهي ترى الطائرة تحط فوق المرجة. ورأت شاباً أنيقاً أسود الشعر، يرتدي بذلة رسمية ويحمل حقيبة جلدية في يده، ينزل من الطائرة.

أهي مسألة عاجلة متعلقة بالعمل؟

لاحقته بعينيها وهو يصعد السلم المؤدي إلى الشرفة، وينحني احتراماً أمام خافيير، وقد وضع حقيبته على الطاولة.

- السيد غارسيا.

قدمه خافيير للموجودين على أنه تاجر مجوهرات ذائع الصيت في مدريد، ثم أخذ مفتاحاً صغيراً منه وفتح الحقيبة الجلدية بنفسه، ليعرض عليهم مجموعة رائعة من الخواتم، وضعت على قماش من المخمل الأزرق الداكن.

- مذهل!

صرخت إيزابيلا ماريا صرخة حادة وعيناها الداكنتان، مسلطتان على المجوهرات.

- لمن هذه؟

تجاهل خافيير سؤال أمه، والتفت إلى زوي وعلى ثغره ابتسامة أذابت أوصالها وقال: «لم أشترِ لك خاتم خطوبة، فقررت هذا الصباح أن أصحح هذا الخطأ».

قفز قلبها من مكانه ابتهاجاً، وغشيت دموع الفرح عينيها، فتحولت الخواتم الثمينة المعروضة أمامها إلى أشكال هندسية ملونة براقة!

وقف خافيير قربها وألقى بذراعه على كتفها العاري، فسرت رعشة في

جسمها، وترنحت في مكانها وقد اعتراها الوهن، كأنها هرة صغيرة أبصرت النور لتوها.

قال لها هامساً: «اختاري ما يعجبك منها».

وإذا بالسيد غارسيا يتسلل بعيداً فيما استعد ليونيل للرحيل قائلاً: «حان وقت الانصراف يا إيزي، ولا أريد رؤية هذه النظرة على وجهك!».

وقفت زوي تودعهما، وهي تؤنب نفسها لأنها أساءت الظن في زوجها. فهو لم يمضِ ساعات على الهاتف يهمس كلاماً جميلاً في أذن عشيقته، بل كان يتحدث مع غارسيا ليجلب له هذه المجموعة الرائعة من الخواتم، كل هذا العناء من أجلها!

لو كان يريد التخلص منها لما أقدم على خطوة هائلة كهذه.

سلمت زوي بصمت بأنها لا تستحقه، ورفعت عينيها نحوه بعد أن انصرف ذويه، وهمست قائلة: «إنك رومنسي للغاية».

أحست بقلبها يكاد ينفجر من شدة الحب، وتمنت لو أنه يستطيع أن يقرأ ما يجول في خاطرها. إلا أنه اكتفى برميها بابتسامة مقتضبة قائلاً: «هل تؤثر فيك الرومنسية؟».

يا لغبائه! ليته سلك هذه الطريق، بدلاً من لعب دور السيد لطيف.

- لا أحد يؤثر فيَّ سواك!

أفضت له بسرها وهي تحدق به بعينين ملؤهما الهيام، وسيول الشوق الجامح تجري في عروقها.

- لاحظت ذلك!

وبدت على وجهه إمارات الاعتداد بالنفس، فتذكرت الدعوة الصريحة التي وجهتها له عند الصباح...

قررت أن تنسى تلك اللحظات المخزية، وتحول انتباهها إلى الخواتم

الماسية. إلا أنها وجدت صعوبة في اختيار خاتم من بين هذه المجموعة الجميلة.

لم يكن خافيير معتاداً على رؤية حبيبته زوي حائرة في أمرها، فاختار لها خاتماً كبيراً، ودسه في إصبعها، إلى جانب خاتم الزواج البسيط.

- إنه كبير جداً!

انعكست أشعة الشمس على الحجر الثمين، بينما كان خافيير ممسكاً بيدها يتأمل الخاتم في إصبعها الطويل النحيل.

- إنه رائع! ألا يعجبك؟

- بلى.

وأحست بغصة في حلقها.

- ولكن ثمنه باهظ حتماً!

- لا يهم.

وهز كتفيه لامبالاة وكأن المال لا يشكل أي عائق بالنسبة إليه. ثم رفع يدها إلى شفتيه وطبع قبلة على أطراف أناملها من دون أن يخفّ عليه، توهج خديها، وتسارع نبضها. فهنأ نفسه بصمت على سلوك طريق الرومنسية.

بعد رحيل تاجر المجوهرات وسائق المروحية، أخذ خافيير يفكر في خطوته التالية. ربما يجدر به أن يحملها إلى السرير، ويراوغها لتقطع له وعداً بألا تفكر بالطلاق ثانية. وإذا برنين هاتفه الخليوي يقطع عليه حبل أفكاره الجميلة. وما إن أدرك هوية المتصل حتى عقد حاجبيه، وناول زوي الهاتف قائلاً: «إنها مدبرة منزل جدتك!».

أخذت الهاتف منه وقد شعرت بالارتباك، فهي لم تسمع شيئاً عن جدتها منذ حفل زفافهما...

لم تكن زوي معتادة على سماع العجوز تكثر من الكلام، فأنذرها قلبها

بأن في الأمر سوءاً.

- لا يفترض بي أن أخبرك شيئاً. لكن جدتك مريضة... ربما لأنها تقدمت كثيراً في السن أو لأن قلبها ضعيف. أعرف جيداً أنها تتمنى أن تصالحك قبل أن يصيبها مكروه. إنها تعيش في قلق مستمر، وهذا يضر بصحتها. فضميرها يؤنبها لأنها لم تحسن معاملتك. اقترحت عليها أن ترسل في طلبك، ولكنها رفضت ذلك. تقول إنك لا ترغبين برؤيتها، وإلا لأتيت من تلقاء نفسك للسؤال عنها. تعرفين جيداً أنها عنيدة للغاية. فإن قررت المجيء، لا تخبريها بأنني اتصلت بك، كي لا تثور غضباً. والغضب مضر بصحتها وقد يقضي عليها.

ذعر خافيير لدى رؤيته شحوب وجه زوي، فأخذ الهاتف من بين يديها، وأعطى اسمه لمديرة المنزل، ملحاً عليها لتتلو الرواية عينها على مسمعه.

- ستأتي زوي لزيارتها في أقرب فرصة ممكنة.

وأقفل الخط والاستياء بادٍ على وجهه.

أراد أن يمسك بالقدر من عنقه، ويخنقه بيديه، ليكف عن وضع العقبات أمام خطته لإيقاع زوجته في حبه.

أخذ نفساً عميقاً، وجاهد نفسه ليتمالك أعصابه، ويتوقف عن التذمر. فالعجوز بين الحياة والموت، وحري به ألا يدع أنانيته تتغلب على رجاحة عقله.

صحيح أنه لم يوافق يوماً على طريقة أليس روثويل في معاملة حفيدتها، ولكنه لن يضن عليها براحة البال والغفران على ما فعلته بها.

علاوة على ذلك، من المؤكد أن زوي ستشعر بارتياح كبير إن علمت أن العجوز الباردة تكن لها الحب.

قرر في نهاية المطاف، أن يرجئ تنفيذ خطة إغواء زوجته إلى أن تتعلق

به ولا تقوى على الابتعاد عنه.

فقال لها بنبرة فاترة: «من الأفضل أن نغادر في الحال».

وحمل هاتفه الخليوي ليأمر بتجهيز طائرة الشركة.

www.elromancia.com

٩ ـ لقاء بعد جفاء

كان الظلام قد أرخى ستاره على الأرض حين توقفت سيارة الشركة أمام منزل جدتها. نظرت زوي إلى الواجهة التي كانت شاهدة على طفولتها الحزينة، وحدسها ينبئها بأن شيئاً ما سيحدث.

عقدت العزم على أن تبذل كل ما بوسعها لتسهل الأمر على العجوز المتحجرة القلب، التي كانت تخشى أن تموت قبل أن تصفي ضميرها.

طلب خافيير من السائق، بنبرة مهذبة، أن ينتظره قليلاً، ثم ترجل من السيارة ليخرج حقيبة زوي الصغيرة من الصندوق.

اقترب منها بخطوات واسعة، وأمسك وجهها بين يديه، ثم رفع رأسها قليلاً لينظر إلى عينيها في الضوء المنبعث من مصباح الشارع.

- أتريدينني أن أبقى معك؟ لا أخال أن مهمتك ستكون سهلة.

أرادت أن ترتمي بين ذراعيه وتتوسل إليه ليبقى معها، لكنها أبت أن تكون أنانية إلى هذا الحد. ما الذي سيفعله في هذا المنزل الكئيب برفقة عجوزين قاسيتي القلب، تمضيان الوقت بانتقاد الجيران؟

- لا عليك، سأكون بخير.

أحبت لمسة يديه، وعظام وجهه البارزة في ضوء مصباح الشارع، وقوة حنانه ودفئه... حنان فطري تعلقت غريزياً به في طفولتها، أو تمتعت به طوال فترة معرفتها بخافيير.

- أظن أن هذه المسألة... مهما كان نوعها... لا يمكن معالجتها

إلا بيني وبين جدتي.

هذا ما خطر له أيضاً. فعلى الرغم من استيائه من ابتعادها عنه، في الوقت الذي بدأت فيه الأمور تسير في الاتجاه المطلوب، كان يعلم أنها تحتاج لتمضية بعض الوقت مع أليس روثويل، ليتوصلا إلى نوع من التفاهم.

- سأبقى أسبوعاً واحداً فقط!

قالت له ذلك بنبرة منخفضة، وقد أحست بأن هذه المدة طويلة جداً.

لكن إن كانت الجدة أليس تحتضر، فحري بها أن تساعدها، لتزيح عن كاهلها عبء الأخطاء التي ارتكبتها في الماضي بحقها. في مطلق الأحوال، لم تكن العجوز موافقة على الاعتناء بها، بعد الحادثة الأليمة التي قضى ابنها وزوجته فيها ولكنها قبلت على مضض، كي لا يضعوها في ملجأ للأطفال.

صر خافيير على أسنانه، وتمالك نفسه كي لا يعترض على الحكم بالنفي الذي فرضته عليه بابتعادها عنه أسبوعاً كاملاً. فداعب خديها بأصابعه الطويلة، وأخفض رأسه ليعانقها بشغف لم يقوَ على كبحه.

بادلته العناق بآخر مشبع بالشوق، والدماء تجري حارة في عروقها، وأصابعها تغوص بين خصلات شعره الناعم.

أفلت منها تأوه خافت، وهي تراه يبتعد عنها فجأة، ويخطو خطوة إلى الوراء.

- سأرافقك إلى الداخل!

تفادى النظر في عينيها المصعوقتين، وقد شعر بالاشمئزاز من نفسه لأنه بدأ شيئاً لا يستطيع إكماله. ثم حمل الحقيبة التي تركها على الرصيف بيد، ووضع الأخرى على ظهرها يقودها عبر الممر الضيق.

إنها المرأة الوحيدة التي تجعله عاجزاً عن السيطرة على أهوائه.

رمته زوي بنظرة عجلى، قد شعرت بالألم بسبب ابتعاده عنها فجأة. لِمَ عانقها بهذا الشغف، ثم دفعها بعيداً وكأنه مشمئز من نفسه؟

أم لعل تجاوبها الفوري والجامح هو سبب اشمئزازه؟

هل يفضل المرأة الباردة المتكلفة؟

وعادت صورة غليندا هافرز تمر في ذهنها...

هل يعتبر زوي مجرد امرأة يستغلها لإشباع رغباته فحسب؟ أهذا هو دورها في حياته؟ وهل بدأ يمل منها؟

كان بوسعه أن يلجأ إلى كل الوسائل الممكنة ليتملص منها، عند معرفته بتدهور صحة الجدة أليس، وعوضاً عن ذلك، طلب مروحية لتقلهما إلى طائرة الشركة في مدريد، وأمر بإرسال سيارة لنقلهما من المطار إلى المعبر، ومن ثم إلى هنا.

أنبت زوي نفسها بصمت على عادتها الكريهة بتأويل تصرفاته تأويلاً سيئاً للغاية. ألم يبذل قصارى جهده ليعيدها إلى إنكلترا بالسرعة الممكنة؟

ألم يرسل بطلب مجموعة من الخواتم الجميلة الباهظة الثمن من أجلها؟

كيف يسعها أن تنسى ذلك كله!؟

عادت تؤنب نفسها على سلوكها الذي يدل على أنها طفلة نكدة الطبع، مشوشة الذهن. إذ لم يحبها أحد يوماً، باستثناء والديها، فافترضت أن لا أحد سيفعل!

صحيح أن أوليفر تظاهر بحبها، ولكن حدسها أنبأها بأنه طامع في مالها فحسب. أما خافيير، فلم تكن واثقة من حبه لها أبداً!

أتراه سيطل زواجهما مع انتهاء المدة التي حددها له، أم سيجعل منها شريكة حياته مدى العمر؟

- علينا أن نتحدث معاً يا خافيير.

- طبعاً!

وضغط على جرس الباب من دون أن تظهر أي تعابير على وجهه القاسي.

- ولكن ليس هنا، وليس الآن.

وتذكر في تلك اللحظة الخطة التي رسمها لهذه الأمسية...

لم يكن مستعداً لفضح مشاعره أمامها فتسخر منها. لكنه عزم على إغوائها، ولعب دور العاشق الرومنسي أمامها، إلى أن تتعلق به، فلا تجد بعدها سبيلاً للابتعاد عنه..

سلم خافيير بصمت يائس بأن خطته لن ترى النور قبل أسبوع على الأقل.

فُتِح الباب على مهل، وأطلت الآنسة بلنغتون منه، لتقول لهما مذعورة: «لا يمكنكما المجيء في هذه الساعة، ستعلم الجدة أن هذه الزيارة ليست عادية».

أجابها خافيير وقد بلغ الاحباط منه مبلغاً: «لا أظن أن الوقت ملائم لهذه الألاعيب. وإن كان ضمير أليس يعذبها كما ادعيتِ، فلن تثور غضباً في وجهك، حين تعلم أن زوي استجابت لطلبك سريعاً».

ودفعها إلى الداخل، وقد بدا نفاد الصبر على قسمات وجهه الوسيم، ثم قال لها بنبرة جافة: «سأعود إلى شقتنا في لندن، يا زوي. يمكنك الاتصال بي ساعة تشائين».

ورفع يده يداعب خدها الناعم الرقيق برقة، قبل أن يعود ويدسها في جيب بنطلونه الأنيق.

لم يكن قادراً على التمادي أكثر في ملامستها ونيران اللهفة مستعرة في أحشائه. عليه أن يرضخ للواقع ويعلق خططه في الوقت الحالي.

فهل من طائلة ترجى من تعذيب نفسه؟

أسرع يغادر المكان قبل أن يجعل من نفسه سخرية أمامها، تاركاً زوي

تحدق فيه حائرة. هل ستتمكن يوماً من فهم هذا الرجل؟

- هل أنت واثقة من أنك بخير يا جدتي؟

بعد أن ساعدت زوي العجوز على النزول إلى الحديقة المغمورة بأشعة الشمس، لم تنسَ أن تغطي ركبتيها بدثار صوفي خفيف.

لم تمنع العلاقة الودية التي نشأت حديثاً بينهما، الجدة أليس من تقطيب جبينها كلما تجرأت زوي، ونادتها.

- تماماً!

استرخت قسمات وجهها، وهي تمد يدها الكثيرة التجاعيد لتربت على يد زوي. إلا أنها أسرعت، كعادتها، تفسد عليها سحر اللحظة قائلة: «أصبحت امرأة هادئة جداً... مع أنني بالغت في القسوة عليك، يبدو أن تربيتي لك أتت بنتيجة إيجابية».

أرادت زوي أن تقول لها إن طبعها المشاكس لم يتغير إلا بعد أن تولى خافيير الوصاية عليها، وهي لا تزال في السادسة عشر من عمرها. إلا أنها فضلت ألا تفعل. فلتبقى العجوز سجينة أوهامها إن كان ذلك يسعدها!

أما هدوء أعصابها الذي أشارت إليه، فظهر من خلال الخطوات العملية التي قامت بها، منذ وصولها إلى المنزل. إذ وجدت مدبرة جديدة للمنزل، هي أرملة في عقدها الخامس، تبحث عن عمل يسليها ومنزل يأويها، لتتمكن من بيع منزلها الزوجي وإنفاق ثمنه عند تقاعدها، وأعادت إلى الآنسة بلنغتون عملها الأساسي بملازمة الجدة والاعتناء بها.

وعلى الرغم من اعتراض أليس بشدة، أرسلت زوي في طلب الطبيب، الذي وبخ العجوز أشد توبيخ لأنها لم تتصل به من قبل، ثم وصف لها الأدوية اللازمة للتخفيف من أوجاعها.

تمكنت زوي من إنجاز مهمتها خلال خمسة أيام فقط، وأصبحت حرة

بالعودة إلى أحضان زوجها.

غمرتها موجة من الحماسة الشديدة، وهي تنتظر بفارغ الصبر لحظة لقائهما من جديد. فبعد اشتداد المرض على جدتها، ومجيئها إلى هنا للاعتناء بها، اضطرا إلى تأجيل الحديث عن مستقبلها إلى وقت لاحق. غير أن القلق قض مضجعها، وطرد النوم من عينيها ليالٍ طويلة.

لامست أصابعها النحيلة الخاتم الماسي الذي أصبحت تتفائل به، وافتر ثغرها عن ابتسامة رقيقة، وهي ترى مدبرة المنزل الجديدة تتسلم مسؤولياتها بجدارة.

- عليّ أن أنصرف الآن.

ثم طبعت قبلة سريعة على خد جدتها وأضافت: «سأتصل بك دوماً. اعتني بنفسك، ولا تنسي الفحص الروتيني الأسبوع المقبل».

غمرتها السعادة وهي تجتاز المرجة المشذبة، وتدخل المنزل لتأخذ حقيبتها من الردهة.

عرض خافيير عليها الزواج بدافع من حسه بالواجب تجاهها، وأظهر لها لا مبالاته من خلال غيابه المستمر عن المنزل.

لكن شيئاً ما تغير تلك الليلة، حين استعرت نيران اللهفة في أحشائها، وحملتها إلى عالم النشوة.

سلّمت زوي في سرها بأنه لم يقع في حبها بعد، ولكنها أحست بشوقه الجارف إليها، الذي عجز عن إخفائه. شوق قد يتحول إلى أساس متين لزواج دائم، إن امتزج مع دفء حنانه وحبها الكبير له.

ووحده الزمن كفيل بأن يغيّر رأيه بشأن إنجاب طفل منها...

كانت سيارتها مركونة في الممر الضيق، فقد أمر خافيير بإرسالها لها في اليوم الذي تلا وصولها إلى هنا، تاركاً رسالة قصيرة فوق لوحة أجهزة القياس تقول: «خطر لي أنك قد تحتاجين إلى الانفراد بنفسك بين الحين

والآخر. كوني حذرة وأنت تقودين السيارة».

طار قلبها فرحاً لما أظهره من اهتمام بها. فحاولت الاتصال به لتشكره، إلا أنها لم تجده في الشقة، ولم يجب على هاتفه الخليوي.

يومها تركت له رسالة، ولم تستطع معاودة الاتصال به، بعد أن انهمكت في ترتيب الأمور هنا.

وضعت حقيبتها في المقعد الخلفي وعلى ثغرها ابتسامة ملتوية. إنها عائدة إليه، ولن تدع شيئاً يثنيها عن ذلك. الابتسامة التي ارتسمت على وجهها لم تفارق ثغرها عند رؤيتها الحاجب وهي تستخدم البطاقة المشفرة لتشغيل المصعد الذي سيقلها إلى الشقة!

كانت زوي واثقة من أنها لن تجده في هذه الساعة في المنزل يقرأ كتاباً، غير أنها لم تشأ الاتصال به في المكتب لتبلغه بعودتها، وفضلت أن تفاجئه. يمكنها أن تأخذ حماماً ساخناً، وتتبرج، وترتدي ملابس أنيقة مثيرة، تلهب حواسه.

توهج خداها وهي تتخيل نفسها جالسة تنتظر وصول زوجها بفارغ الصبر. فأسرعت تدخل إلى الشقة، وترمي حقيبتها أرضاً... وإذا بصوت أنثوي يسمرها في مكانها: «خافيير؟ حبيبي؟ أهذا أنت؟».

امتقع وجهها، وأحست بالغثيان. إنها تعرف هذا الصوت جيداً...

لم تلبث شكوكها أن تأكدت، وهي ترى غليندا هافرز تطل من غرفة الجلوس، مرتدية ثوباً أسود قصيراً، يبرز مفاتنها!

أخذ قلبها يتخبط بعشوائية، وقد عقدت الغيرة المؤلمة لسانها عن الكلام...

مزقت غليندا الصمت المخيم عليها صارخة: «رباه!».

ثم رفعت عينيها الزرقاوين إلى الأعلى، وهزت كتفيها استهجاناً وهي تقول: «لم نكن نتوقع عودتك قبل يومين».

تجاهلت زوي كلامها الجارح، وابتلعت ريقها بصعوبة، محاولة أن تستجمع قوتها لتطرح عليها السؤال الذي كان أن يخنقها: «ما الذي تفعلينه هنا؟».

- أرجوك!

أفتر ثغرها المطلي بحمرة شفاه وردية فاقعة عن ابتسامة شفقة، فيما كانت تعبر الغرفة وعطرها المسكي يفوح منها:

- ماذا تعتقدين؟

وأبعدت شعرها البني الكثيف عن وجهها، وجلست في الكنبة مسترخية وكأنها في منزلها، ثم تابعت تقول: «اصغي إلي جيداً يا فتاة!».

وأشاحت بنظرها، بعيداً عن زوي، لتتفحص أظافرها المطلية بلون وردي يتلاءم مع حمرة شفاهها، متابعة كلامها:

- أعلم أنك وريثة ثروة هائلة... لمَ تخالين خافيير تزوج بك؟ في المرة الأخيرة التي تناقشنا فيها بأمرك. حاولت إغاظته ونعته بصائد الفرص، وكنا يومها في كان، ولم ينكر الأمر. تعلمين جيداً أننا على علاقة منذ سنوات طويلة، لكننا حرصنا على إخفاء الأمر عنك. وبما أن سرنا افتضح الآن، سأترك القرار لك!

وبعد أن انتهت من تفحص أظافرها، رفعت عينيها لتتأمل وجه زوي الشاحب، وعادت تقول: «اعلمي أن خافيير أراد أن يوقعك في سحره كي لا تشكي في الأمر. فزوجة ثرية خير من زوجة فقيرة. لكنني أنصحك بالابتعاد عنه قبل أن يحطم زير النساء هذا قلبك!».

- متى تتوقعين عودته إلى المنزل؟

شعرت زوي بالغضب يستولي عليها. فالكابوس المزعج الذي خالت أنها ستتخلص منه بطريقة أو بأخرى، تحول إلى واقع أليم قاسٍ. أحسّت في تلك اللحظة، أنها قادرة على قتله بيديها، إن وقعت عيناها عليه.

وكم كانت دهشتها عظيمة حين رأت الارتباك على وجه المرأة السمراء المثيرة. إلا أنها ما لبثت أن أدركت أن عينيها خانتاها، وهي تراها تهز كتفيها بلا مبالاة وتجيبها قائلة: «لا أدري. استدعوه إلى ميلانو على وجه السرعة. ولكنه لم يشأ أن يصطحبني معه كالعادة، وطلب مني أن أنتظره هنا. فكوني عاقلة وتقبلي الواقع أو اطلبي الطلاق».

تتقبل الواقع! محال!

كان الألم يعتصر فؤادها ونيران الغضب تتأجج في أحشائها.

لن تتقبل هذا الوضع المشين أبداً. ولن تبقى لتواجهه، وتعطيه الفرصة ليحطم فؤادها.

فاستدارت على عقبيها وغادرت الشقة على عجل...

١٠ ـ أخيراً، تكلم الحب

لم تعرف زوي قط، كيف تمكنت من الوصول إلى واكهام لودج، من دون أن ينتهي بها الأمر في مشرحة البلدة.

فجلّ ما تذكره عن رحلتها من لندن، هو الذل الجارح الذي ألحقته بها غليندا، وبقي يعذب أفكارها.

دخلت إلى المطبخ فوجدت إيثيل تعد شراب الشوكولاته الساخن، و جو جالس إلى الطاولة الخشبية.

- هل أنت بخير؟

سألها ذلك، ونهض من مكانه والقلق بادٍ على وجهه.

أدركت زوي أن شكلها يبدو مزرياً أكثر مما كانت تتوقع، فأرغمت نفسها على رسم ابتسامة مطمئنة على ثغرها وهي تجيب قائلة: «إنني بخير».

وهل قتل المشاعر وسحقها سحقاً عنيفاً يوحي بالخير؟

تقدمت إيثيل نحو الموقد الكبير لترفع الإبريق عن النار.

- لم نكن نتوقع حضورك. كان حرياً بك أن تتصلي بنا لإبلاغنا بمجيئك، فبعد نصف ساعة من الآن، يوصد جو أبواب المنزل كلها بالمزاليج. هل أتى خافيير معك؟

- كلا!

وأسرعت تجلس على كرسي قربها، وقد ترنحت وكادت تقع أرضاً. لابد أنه عاد إلى لندن وارتمى بين أحضان عشيقته.

هل استولت عليه الكآبة بعد أن افتضح أمره؟ أم لعله يهز كتفيه، لا مبالياً بما خسره؟

لقد أخبرتها إيزابيلا ماريا بكل ما تملك من اعتداد بنفسها، أن ابنها أخذ بنصيحتها، للمرة الأولى في حياته، فتزوجها هي، الفتاة الثرية...

كيف استخفت زوي بهذه الفكرة وأسقطتها من حساباتها، مدعية أنها تعرفه أكثر من والدته؟

يا لها من حقيقة مرة!

وضعت إيثيل كوبين من الشوكولاته الساخنة على الطاولة.

- دعيني أعد لك عشاء خفيفاً. ما رأيك بالبيض واللحم المقدد؟ أم لعلك تفضلين كوباً من الشاي مع شريحة من الخبز بالزبدة؟

ووضعت يدها على كتف زوي وأضافت: «تبدين مرهقة!».

صحيح أن العجوز قلقة عليها، لكن إمارات الفضول بدت جلية على وجهها. فحاولت زوي الابتسام إلا أنها أحست بفمها متيبساً.

- شكراً لك، تناولت طعامي.

لم تكن تكذب، ففي الصباح تناولت طعام الفطور.

كيف يعقل أن يبدأ نهارها مفعماً بالأحلام الوردية لينتهي بشقاء وخيبة أمل؟

- أمضيت بضعة أيام مع جدتي أليس، في حين أن خافيير...

وجد لسانها صعوبة في نطق إسمه، إلا أنها جاهدت نفسها لتتابع كلامها:

- إنه مسافر في رحلة عمل.

لكن من دون عشيقته العزيزة على قلبه.. رباه! كم تكرهه!

ما إن سمع بوزي صوتها، حتى تململ في سلته قرب الموقد. ففتح عيناً

واحدة، وهز بذيله مرحباً بها، ثم عاد إلى النوم!

لا شيء يضاهي ترحيبه الحار بها!

اغرورقت عيناها بالدموع، دموع حارة كبحتها وقد أحست بغصة في حلقها... شعرت أنها منبوذة، لا قيمة لها...

بادر جو إلى الكلام، وكأنه أحس بما يجول في خاطرها، أو لمح الدموع في عينيها المتلألئتين.

- إنه مرهق بعض الشيء. لم يتوقف عن الركض طوال بعد الظهر.

تدخلت إيثيل قائلة: «لعبا بالطابة طوال فترة بعد الظهر فالحق يقال أن جو يبدو كطفل كبير كلما تواجد مع هذا الكلب الصغير».

فرحت زوي لأن بوزي لم يكن يفتقدها. فهي قد اعتادت النظر إلى الأمور من منظار المنطق والحكمة. لكن المشاعر التي خالجتها في تلك اللحظة، كانت شبيهة بتلك التي خالجتها يوم انتقلت للعيش مع جدتها. وشعرت أن أحداً لا يهتم لأمرها، وكأن الخسارة التي منيت بها أكبر من قدرتها على الاحتمال.

- سأخلد إلى النوم. كان نهاري طويلاً، وبغيضاً أيضاً!

وتظاهرت بالتثاؤب أمامهما، ثم تمنت لهما ليلة سعيدة، وصعدت إلى الغرفة، وهي تدرك تمام الإدراك أنه لن يغمض لها جفن!

فأفكارها المضطربة طردت النوم من عينيها إلى غير رجعة...

في الماضي ساورتها بعض الشكوك، ولكن لم يخطر على بالها مطلقاً أن العشيقة التي ربطته بها علاقة وطيدة، لم تخرج من حياته بعد.

كم كانت ساذجة حين صدقت أن رجلاً وسيماً ينبض بالرجولة مثله، امتنع عن معاشرة النساء خلال السنة الأولى من زواجهما.

وبدلاً من أن تستسلم لأوهامها الصبيانية، وتحاول إيجاد سبيل لإيقاعه في حبها، كان عليها أن تواجه الواقع، وتدرك أن خافيير يحتاج

إلى امرأة بكل معنى الكلمة، امرأة مثيرة تملك خبرة غليندا، لا فتاة خرقاء مثلها.

وفي خضم انفعالها، تساءلت ما إذا كانت تلك المرأة التي وجدتها في شقته، تكذب عليها... غير أن هذه الفكرة ماتت في مهدها.

لابد أنه عاد من ميلانو ليجد غليندا تنتظره بلهفة. أتراها أخبرته أن زوجته علمت بأمرهما؟

من المحتمل أن يكون خافيير بريئاً، وهو لم يطلب من غليندا الحضور إلى شقته، إلا لسبب معين. إذا كان الأمر كذلك، فمن الطبيعي أن ينهي عمله معها، ويتخلص منها، ليتصل بعدها بزوجته ويبلغها بعودته.

نبذت زوي هذا السيناريو وانتقلت إلى الثاني...

خافيير مذنب... مذنب... مذنب...

وغليندا ترحب بحبيبها وتبلغه الخبر. لقد تخلص من عروسه الحمقاء من دون أي جهد.

فلو كان يكنُّ لها الاحترام ويهتم لراحتها، لبذل قصارى جهده ليتصل بها ويطمئن على حالها فحسب.

خلعت الخاتم الماسي من إصبعها ورمته في الزاوية. ألم تقل غليندا إنه حاول التودد إليها كي لا تشك في أمره؟

ولم يحاول لمسها أو مطارحتها الغرام، إلا بعد أن قالت له تلك الليلة، إنها لم تعد قادرة على الاحتمال وتريد أن تبطل زواجهما الصوري، فخشي أن تفلت الثروة من يده، وهبّ يطالب بحقوقه الزوجية.

وإذا بخاتم الزواج يلحق بالخاتم الماسي في الزاوية.

راقبت إيثيل زوي وهي تهبط السلم بعينين مشوبتين بالقلق. بدت مختلفة وكأنها فقدت براءة الطفولة وطيبة القلب.

كان شعرها الذهبي الطويل مشدوداً إلى الخلف ومشبوكاً بمشبك جميل، وجسدها النحيل يتمايل في فستان حريري أنيق بلون الزمرد.

منذ ليلة وصولها إلى واكهام لودج بمفردها، وإصبعها خال من خاتم الزواج. لا شك أن زواجهما يمر في أزمة صعبة... صعبة جداً.

فخلال الأيام الثلاثة الماضية كانت زوي أشبه بقطة على سطح صفيح ساخن. تجفل كلما رن جرس الهاتف، وتقضي النهار بطوله في المنزل، تذرع الأرض جيئة وذهاباً وعيناها لا تفارقان الممر الطويل.

ولكن التغير الذي طرأ عليها هذه الليلة أثار قلق إيثيل أكثر.

- سأعود في ساعة متأخرة يا إيثيل، لا داعي لانتظاري. قولي لجو ألا يقفل الباب الأمامي بالمزلاج، سآخذ المفتاح معي.

لم يفت إيثيل أنها لم تأتِ على ذكر زوجها منذ وصولها تلك الليلة إلى المنزل، في وقت متأخر.

وعلى الرغم من أن رب عملها لم يتصل للسؤال عنها، وجدت إيثيل نفسها مرغمة على تولي هذه المهمة.

- إلى أين أنت ذاهبة؟

مرت لحظات طويلة، من دون أن تسمع إيثيل ردها. وبعد قليل، التفتت زوي نحوها، وعيناها الثاقبتان تقولان لها إنها لم تعد طفلة، وترفض أن يعاملها أحد بهذه الطريقة.

إنها المرة الأولى التي تفرض فيها نفسها كربة هذا البيت.

- يقيم غي و جيني حفلة، بمناسبة انتقالهما إلى منزلهما الجديد. وجدت بطاقة الدعوة في البريد.

توقفت قليلاً عن الكلام، فلمحت إيثيل في عينيها إمارات البؤس التي لم تلبث أن تلاشت، لتحل محلها نظرات باردة برودة الصقيع.

- طابت ليلتك، يا إيثيل.

ألهبت شمس المساء بشرة زوي، من دون أن تتمكن من التغلغل إلى أعماقها الباردة.

انتهى الأمر! كانت تتوقع أن يتصل بها خافيير، ليناقشا معاً مستقبل علاقتهما، إلا انه لم يفعل.

ثلاثة أيام بلياليها وهي تتوق للقائه للمرة الأخيرة، لتقول له كل ما يجول في رأسها، وتتعه بأسوء النعوت وتتخلص من الألم والسم اللذين أرهقا كيانها، لكن ذلك لن يحصل أبداً!

تأملت صورتها المثيرة للشفقة في المرآة، وقررت أن تمحوها إلى الأبد، وتجمع شتات حياتها وتنسى أمره.

قادت سيارتها على الطريق المؤدي إلى منزل جيني الجديد، في ضواحي البلدة، وهي ترسم في ذهنها خطواتها المستقبلية. عليها أن تبدأ بمعاملات الطلاق، وتتصل بالأوصياء عليها ليؤمنوا لها مبلغاً من المال يكفي لشراء شقة صغيرة قرب المؤسسة الخيرية، علّها تتمكن من دفن خيبة الأمل عن طريق الانغماس بالعمل.

وبعد ذلك... لم ترَ بعد تلك الفكرة إلا فراغاً لا معالم له، فزمت شفتيها وزادت من سرعة السيارة.

- عزيزتي، تسعدني رؤيتك.

دست جيني ذراعها تحت ذراع زوي، وقادتها في جولة في أرجاء المنزل الجديد.

- أرسلت بطاقة الدعوة على أمل أن تصل إليك، فلا أحد كان يعلم بمكانك، أنت وخافيير... بالمناسبة، لمَ لم يحضر معك؟ فوجوده شرف كبير لنا.

- إنه مشغول.

لم تكن زوي مستعدة للحديث عن زوجها، أو عن زواجها الفاشل،

فأسرعت تغير الموضوع.

- إنها رائعة، أليس كذلك؟ انظري! هناك جهاز للتحكم عن بعد، لرفع الستائر الكتانية الثقيلة.

ابتسمت زوي ابتسامة مجاملة، وتمنت في سرها لو أنها لم تأتِ إلى هنا مطلقاً. عليها أن تبني حياتها من جديد، والخطوة الأولى تبدأ بعدم الاختلاط ثانية بأصدقائها القدامى.

- تعالي لأريك المطبخ، إنه مجهز بأحدث الأدوات المطبخية. جن جنون غي حين استلم الفاتورة. يبقى عليّ أن أتعلم الطهو.

بعد خمس دقائق، انضمت زوي إلى الضيوف في الفناء الخارجي حاملة في يديها كوباً من العصير. فوجدت الجميع يتسامرون، ويضحكون، ورائحة الشواء تعبق في المكان، والأضواء الملونة تضفي جواً ساحراً وقد بدأ الليل يرخي ستاره...

تحت أوليفر شيرمان يسامر فتاة، شعرها أحمر، ترتدي فستاناً أسود قصيراً. فأشاحت بنظرها بعيداً عنه، ووقفت تتبادل أطراف الحديث مع بعض النسوة، إذ قلما يهمها أن تجدد علاقتها بشيرمان. غير أنها ما لبثت أن سمعت صوتاً من الخلف يقول لها: «أهلاً بك! هل أتيت بحثاً عن اللهو بعيداً عن زوجك الممل؟».

تأففت زوي بصمت... ألن يكف أبداً عن هذه التصرفات السخيفة؟

ومرت في رأسها ذكرى ما حصل بينهما خلال حفل زفاف جيني، ما جعلها تشعر بالاضطراب... فالتفتت نحوه برشاقة، وقالت له متشدقة: «لا تكن سخيفاً يا أوليّ».

أحست بالدماء تسري حارة في عروقها وهي ترى خافيير يخرج إلى الفناء، ترافقه غليندا!

كيف يجرؤ؟ إن كان يريد إذلالها والتبجح أمام الملأ بأن عشيقته تحتل مكان الصدارة في حياته، فهو قد وجد الطريقة الأفضل لتحقيق ذلك. تمنت زوي لو أن الأرض تنشق وتبتلعها، وسرى في كيانها مزيج من اللهب والثلج، وعلا الشحوب وجهها.

بدا خافيير رائعاً، كالعادة، بطوله الفارع وقامته الممشوقة، وسرواله الرمادي الأنيق، وقميصه السوداء التي تبرز كتفيه الصلبتين.

شعرت زوي بمرارة فقدانه، وهي تتأمل قسمات وجهه الحسنة التكوين، وعينيه الضبابيتين.

وهل كان يوماً لها لتخسره؟

صفعتها هذه الحقيقة الأليمة فخطر لها أن تتودد إلى شيرمان الواقف أمامها، علها تستعيد زوجها الضائع. إلا أنها نبذت هذه الفكرة من رأسها آبية أن يصل بها الانحطاط إلى هذا الحد. وما إن وقعت عليها عيناه، اللتان كانتا تبحثان عنها بين الضيوف، حتى أدركت مدى ضعفها.

فعلى الرغم من وجود عشيقته إلى جانبه، اجتاحتها موجة عارمة من الشوق المحموم إليه. كم هي حمقاء!

بدأ قلبها يتخبط بين ضلوعها وهو يتوجه نحوها، والضيوف يتنحون جانباً مفسحين له الطريق، ونظرات الإعجاب بادية في عيون النساء، فيما راح الرجال يرمقونه بنظرات امتزج فيها الحسد بالرهبة.

تسمرت عيناها على وجهه النحيل الجميل... أهي الوحيدة القادرة على مقاومته؟ وهل ستتمكن من ضبط نفسها في هذا الموقف المهين؟ أم أن قلبها المرهف سيخونها؟

بدت ملامحه متحجرة وهو يدنو منها. إلا أنه رمى مضيفته بابتسامة ساحرة وهي تحمل إليه صينية وضعت عليها شتى أنواع المشروبات المنعشة.

- إن منزلك جميل يا جيني، أتمنى لك ولغي السعادة. أرجو الآن أن تعذرينا ولكن علينا أن ننصرف.

أخذ الكوب من يد زوي، ووضعه على الصينية، ثم نظر إليها بعينين ثاقبتين وقال: «هلا ذهبنا؟».

لم يكن ذلك سؤالاً وإنما أمراً.

استولى الذعر على زوي وقد أدركت أنه سيعترف لها بحبه لغليندا بعد أن سقطت الأقنعة كلها، مؤكداً لها أن لا جدوى من الاستمرار في هذا الزواج العقيم.

أمسك خافيير بمرفقها، فتملكتها رغبة جامحة بوضع يديها حول عنقه وخنقه. أرادت أن تكون صاحبة المبادرة، فتطلب مواجهته وتصر على الطلاق، ثم تغادر من دون أن تلتفت وراءها.

ليته لا يتمتع بهذه القدرة على الاستحواذ على قلبها وعقلها! تباً له!

ما إن وصلا إلى الرصيف أمام المنزل حتى اغرورقت عيناها بالدموع. كانت سيارته مركونة إلى جانب سيارتها الصغيرة.

هل ينوي أن يفجر قنبلته هنا، ليرحل بعدها مع عشيقته، تاركاً زوي وحدها مجروحة ومهانة؟

رفعت ذقنها بتحدٍ تستعد لمواجهة ما سيحصل. ولأول مرة منذ وصولهما رفعت عينيها نحو غليندا، فوجدتها مجردة من ثقتها الكبيرة في نفسها. ما سبب هذا البؤس في عينيها؟ في مطلق الأحوال، لن تشفق زوي عليها.

أفلتت ذراعها من قبضته وهي تذكر نفسها بمدى كرهها له، ثم قالت من بين أسنانها: «لا أفهم سبب اقتحامكما الحفلة بهذه الطريقة!».

- ستفهمين في الحال.

وأمسك بمعصمها بقوة وتابع يقول: «أخبريها يا غليندا أو امزق

الشيك».

- أنا... أنا...

وأخذت صاحبة العينين الزرقاوين نفساً عميقاً، وقالت مدمدمة: «كذبت عليك!».

- وماذا بعد؟

توهج خدا غليندا وهي تلتفت لترمي زوي بنظرات ملؤها الحقد.

- انتهت علاقتي بخافيير قبل زواجكما.

قفز قلب زوي من مكانه. أرادت أن تصدق كل كلمة سمعتها، ولكنها لم تجرؤ على ذلك.

كانت المرأة تؤدي أمامها دوراً متقناً، تمرنت عليها على مدى ثلاثة أيام.

- أتتوقعين مني أن أصدق كلامك؟ هل أرغمك على لعب هذا الدور كي لا يخسرني، أليس هذا ما قلته لي؟

شعرت زوي بالحيرة، ولم تفهم ما الذي يدور من حولها.

- أليست هذه الطريقة الأمثل ليتمكن من إقران ثروته بثروتي؟

أحست بتوتر خافيير. لقد تمكنت من جرح كبريائه بعد أن فضحت دوافعه الخبيثة. ولكن لِمَ لا يمكنها أن تشعر بنشوة الانتصار؟ ولِمَ ترغب بالبكاء؟

- أخبريها ما الذي كنت تفعلينه في شقتي.

لوى خافيير شفتيه والاشمئزاز باد على وجهه. أتراه مشمئز منها أو من غليندا؟ من الصعب عليها أن تعرف!

نظرت غليندا إليه والشرر يتطاير من عينيها.

- ولكن الأمر لا يعنيها.

- أصبح الأمر يعنيها بعد أن كذبت عليها.

- طلبت منك مالاً.

وزحف الاحمرار إلى وجهها بقوة، وهي تتابع قائلة: «كنت مفلسة ومن دون مأوى، فلم أجد سواك ألتجئ إليه. ولكن تلك المراهقة التي تدعي أنها زوجتك، وصلت على حين غرة وحصل ما حصل... لن تجد زوجة أفضل مني!».

- محال!

قال لها ذلك باحتقار، ثم تابع يقول: «بعد أن تخلى عنك عشيقك الفرنسي، ووجدت نفسك مفلسة ومن دون مأوى، استغليت الفرصة لتكذبي على زوجتي، وتفسدي زواجنا. ثم هرعت لمؤاساتي بسبب حزني على هجر زوجتي لي. أريد أن أسمعك تعترفين بذلك».

خيم الصمت عليهم، فأفلت خافيير معصم زوي وألقى بذراعه حول كتفها.

أحست زوي بوهن في رجليها، فاستندت إليه شاكرة دعمه لها. هل أساءت الحكم عليه؟

- حسناً؟

بدا ملحاً جداً.

- هل تريدينني أن أذكرك بالشيك؟

رمته غليندا بنظرة غضبى قائلة: «حسناً، أعترف بالأمر. هل أنت راضٍ؟».

وتوجهت نحو سيارته مضيفة: «أعدني إلى الفندق. سئمت من هذا الوضع كله!».

أوصلها خافيير إلى الفندق، ثم التفت نحو زوي قائلاً: «سنعود الآن إلى منزلنا».

بدا التجهم على وجهه، فحبست زوي أنفاسها. صحيح أنها أساءت الحكم عليه وصدقت كلام غليندا، لكنها توقعت أن يقول لها أشياء كثيرة بعد. إلا أنه لم ينبس ببنت شفة، واكتفى بإدارة محرك السيارة، فتملكها الإحباط وقالت له بصوت خافت، وأنفاسها المتسارعة مسموعة: «أعدني إلى منزل جيني لأجلب سيارتي».

اشتدت قبضته على مقود سيارته الجاغوار.

- سنجلبها في الغد. وحتى ذلك الحين، لن أدعك تغيبين عن ناظري. حان الوقت لقول الحقيقة.

لم يكن لديها أدنى فكرة عما يقصده. لعله يريد أن يوضح مسألة ما تتعلق بعلاقته بغليندا. وتذكرت في تلك اللحظة أمراً مهماً.

- لمَ انتظرت ثلاثة أيام لتجلب هذه المرأة إلى هنا، وترغمها على الاعتراف بالحقيقة؟

زم خافيير شفتيه وهو ينهب الطريق نهباً.

- لم يتطلب الأمر إلا ثلاث ساعات.

وخفف سرعة السيارة قليلاً ليجتاز منعطفاً ضيقاً، ثم تابع يقول بنبرة واثقة: «ستحدث في الأمر لاحقاً!».

أذعنت زوي لنصيحته، وراحت تعبث بحزام الأمان بانفعال.

ولم تمر لحظات قليلة حتى وجدت نفسها تسأله: «هل سافرت غليندا معك إلى كان؟».

- التقيت بها هناك!

وانعطف بالسيارة نحو الممر الطويل المؤدي إلى واكهام لودج.

لزمت زوي الصمت والفضول يتآكلها فهي تريد أن تعرف حقيقة هذه الفوضى. وقبل أن تتاح الفرصة لها لتتكلم، وضع يده خلف ظهرها وقادها إلى المنزل.

- حسناً!

وأقفل باب غرفة النوم خلفهما.

- سئمت هذه الألاعيب.

توترت ملامح وجهه التي لفحتها أشعة الشمس، وأضفت عليها لوناً برونزياً رائعاً، وأخذت عيناه تومضان بوميض الغضب.

- سئمت من التذرع بالعمل، هرباً من إغرائك. سئمت من لعب دور الرجل اللطيف، المراعي لمشاعر الآخرين، وجلُّ ما أتمناه هو أن أرمي بك على السرير وأطارحك الغرام. سئمت من عذاب الضمير والخوف من أن تكوني حاملاً مني.

وأخذ نفساً عميقاً وتابع يقول:

- اعلمي أنني أحبك، وأريد أن ينجح زواجنا. أريد أن أنجب أولاداً منك... أريد أن أمضي العمر معك!

ارتمت زوي على السرير فاغرة الفم... صحيح أن طريقته في الإفصاح عن مشاعره لا تخوله الحصول على جائزة الحبيب الرومنسي المثالي، إلا أنها وجدت فيها مبتغاها.

سالت الدموع الغزيرة على خديها، وهو يتوجه نحوها، حائراً يتظر ردها.

- إذن؟

أمسكت بوجهه بين يديها، وعانقته، بعد أن عجزت عن إيجاد كلمات ترد عليه بها.

بادلها خافيير العناق بآخر مشبع باللهفة، فاستجاب كيانها له استجابة بددت الشكوك كلها.

- لطالما أحببتك يا خافيير...

قالت له ذلك بصوت هامس، ثم تابعت تقول بأنفاس متقطعة: «منذ

كنت طفلة صغيرة».

رفع رأسه قليلاً، مصغياً إلى كلامها باهتمام بالغ.

- لكن شعوري تغير.. وبدأت أحبك كامرأة. أتذكر يوم صرحت لك بما في نفسي، وأحرجتك وأحرجت نفسي في آن معاً؟

رفعت يدها ترسم خطوط فمه بأناملها:

- ظننتَ يومها أنني مجرد مراهقة، أوهمها عقلها بأنها متيمة بك. لكنك أخطأت الظن، فحبي لك كان يكبر يوماً بعد يوم. لِمَ حسبتني وافقت على الزواج بك، مع أنك طلبت يدي بطريقة مريعة؟

تأوه خافيير تأوهاً خافتاً، وقرّبها منه تاركاً يده تجس طريقها إلى شعرها الذهبي، تحرره من المشبك، فيما تسللت يده الأخرى إلى خصرها تجذبها إليه بقوة. ومضت ساعات طويلة قبل أن يتمكن أي منهما من التقاط أنفاسه...

مع ظهور خيوط الفجر الأولى من صباح ذلك اليوم الصيفي الرائع، استيقظ الحبيبان. مد خافيير يده يبعد خصلات شعرها عن وجهها، قائلاً لها بتكاسل: «علينا أن نأكل شيئاً لنستعيد قوتنا».

بعثت عيناه الضبابيتان رسالة واضحة، لا تستدعي ترجمة شفهية.

وأنزل ساقيه الطويلتين عن السرير، فيما راحت زوي تتأمل ظهره الصلب.

- سأنزل لجلب الطعام قبل أن تستيقظ إيثيل.

وغادر الغرفة، تاركاً زوي تؤنب نفسها لأنها شكت فيه، وصدقت خبث غليندا. وفكرت أنها لن تتمكن من تناول الطعام، من شدة فرحها!

لكن رائحة القهوة الشهية والخبز المحمص المطلي بالزبدة جعلاها تبدل رأيها...

بعد قليل تذكرت زوي أمراً مهماً.

- ألن تسافر بعد اليوم من دوني؟

- أبداً!

وبعثت ضحكته الساحرة الدفء في نفسها!

- أعرف بأنني كنت أحشر أنفي في مشاريع عديدة، خشية أن أستسلم لأهوائي وأقوم بإغوائك كلما وقعت عيناي عليك، في حين أن زواجنا كان مجرد حبر على ورق. بالمناسبة، أيعقل أن يخطر على بالك أنني تزوجت بك لأضيف ثروتك إلى ثروتي؟

ارتشفت زوي ما تبقى من قهوتها وهي تحاول أن تجد عذراً يبرر تصرفها الأحمق.

- أقنعتني غليندا بالفكرة.

لن تزج والدته في الموضوع كي لا تثير حقده عليها.

أخذ الفنجان الفارغ من يدها ووضعه على الصينية، ثم قال لها: «ألم تحاولي الإمعان في التفكير في الأمر؟ لو كنت طامعاً في مالك، لما اقترحت عليك زواجاً صورياً لمدة ستين فقط. أما بالنسبة إلى التهمة الأخرى التي وجهتها إلي، فاعلمي أنني لم أمض ثلاثة أيام لاتخاذ قرار بشأن مواجهتك بكذبة غليندا».

اتكأ على مرفقه ليتمكن من التفرس في وجهها الجميل، قبل أن يتابع كلامه قائلاً: «في مطلق الأحوال، لا يمكنني أن ألومك. فعند عودتي من منزل جدتك، استدعوني إلى ميلانو على وجه السرعة. اتصلت بك لأعلمك بمغادرتي البلاد، لكنني وجدتك مشغولة مع طبيب أليس فطلبت من الآنسة بلنغتون إبلاغك الرسالة. وعندما اتصلت بك صباح البارحة لأعلمك بعودتي، قالت لي إنها نسيت إبلاغك الرسالة، وإنك عدت إلى لندن نهار الاثنين. استولى علي الذعر وأدركت أنك التقيت حتماً بغليندا، وتحدثت معها. فلم أجد أمامي سوى تهديدها بتجميد الشيك الذي أعطيته لها، إن لم تعترف أمامك بالحقيقة!».

ومال نحوها يداعب عنقها، ثم أبعد خصلة شعر عن وجهها وقال: «أظن أنني استعدت قوتي».

- بقي لدي سؤالان!

جذبها خافيير نحوه مرسلاً في جسدها ارتجافاً مبهجاً.

- ما الذي كانت تفعله في شقتك؟ ولِمَ أعطيتها مالاً؟

علقت أنفاسها في حنجرتها ويده تتلمس بشرتها برقة بالغة.

- هكذا إذن؟

- نعم!

وبدلاً من أن تبعده عنها راحت يداها تستكشفان صدره القوي العضلات.

فاستجمع خافيير شتات نفسه وأجابها قائلاً: «عندما اتصلت بك من قاعة الاستقبال في الفندق في كان، حيث كنت أنتظر وصول مدير الموقع، الذي كنت على موعد عمل معه، وصلت تلك المرأة برفقة شاب فرنسي. وخلال وجودنا في إسبانيا أخبرتني أمي أنها حاولت الاتصال بي مراراً. لم أعر يومها الموضوع اهتماماً، ولكن عند وصولي إلى الشقة في لندن، وجدت رسالة منها على الهاتف. بدت لي منهارة فاتصلت بها، وعلمت منها أن حبيبها الفرنسي هجرها، وطردها من الشقة التي استأجرها لها، فباتت بلا مأوى وبلا مال، وطلبت مني أن أقرضها بعض المال إلى أن تتدبر أمورها».

عض خافيير على شفته، مؤنباً نفسه بصمت لأنه أبى الإصغاء إلى حدسه الذي حذره من مغبة التعاطف معها.

- شعرت بالأسف نحوها. ففي يوم من الأيام، كانت تربطني بها علاقة عابرة. وبعد انفصالنا، استمرت في تقديم الخدمات لي مقابل المال، فوافقت على مرافقتك في تلك الرحلات إلى الخارج، في الوقت الذي كنت

فيه مشغولاً جداً في المشاريع الجديدة. ولكنني تذكرت حينها أنني مسافر إلى ميلانو صباح اليوم التالي، فسمحت لها بأن تذهب إلى الشقة، وتطلب من الحاجب أن يفتح لها الباب ويدعها تدخل. وأظنك تعرفين الباقي. هل لديك سؤال آخر قبل أن أنفس عن الاحباط الذي استولى علي؟

ابتسم لها ابتسامة هر وحشي يستعد للانقضاض على فريسته... ابتسامة أذابت أوصال زوي.

إنها تحبه وتحب كل ما فيه... مالت برأسها نحوه وقالت له بمكر:

- بقي سؤال واحد... هل استعدت نشاطك حقاً؟

جذبها خافيير إليه، وعانقها عناقاً محموماً، هو خير جواب على سؤالها...